ستون دقيقة

قبل منتصف الموت

الطبعة الأولى
١٤٣٨هـ-٢٠١٧م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

اسم الكتاب	: ستون دقيقة قبل منتصف الموت
اسم المؤلف	: صبري حسن
الغلاف	: عمرو الحو
التصحيح اللغوي	: خالد رجب عواد
الطبعة	: الأولى
رقم الإيداع	: ٢٣٥٠٨/ ٢٠١٦
الترقيم الدولي	٩٧٨-٩٧٧-٧٨٦-٠٨٧-١

٨ عمارات الواحة – قطعة ١٠ – مدينة نصر - القاهرة
ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠
ghorabpublishing@hotmial.com

رواية

ستون دقيقة
قبل منتصف الموت

صبري حسن

دار غراب للنشر والتوزيع

إهداء أول

إلى الأمل الذي دفعني لكتابة هذه الرواية.

إلى كل من شجعني وأبصر فيَّ ما لم أبصره في نفسي.

إلى أولئك الذين يقرؤون دون معرفة الكاتب ويبذلون المعاناة صادقين في الاستمتاع أو التقييم.

كفاني شرفًا أني أُقرأ بأعينكم بعدما كُتبتُ بتشجيعٍ ودعمٍ من آخرين.

إهداء ثانٍ

إلى قلبي النابض، حبيبتي زوجتي وأم أولادي

نـبراسي الـذي عـلى هديـه كتبـتُ، وعـلى هديـه أسعى، وبنوره أعيش.

إلى ضلعي الذي يقولون أنه أعوج...

ضـلعي الأعـوج جعلنـي أسرة ووهبنـي دفء الحب والولد.

فلـولاه لكنـتُ فـردًا مهمـلًا وحيـدًا ضـائعًا في دروب الحياة.

تَغتسلُ الحقيقةُ في ماءِ الفجر. عاريةً لا شيءَ يَستُرُها. واضحةً لا حجابَ لها. غَيْرَ أن عُيونَ الخَلْق لا تكاد تُبْصِرُ الهوى. تَكادُ تُنْكِرُ الحقيقةَ من جمالٍ وفتنةٍ وبهاءٍ.

٧:٣٥ ص

(١)

توقَّفت عيني بغتةً، تحجَّرت، اتسعت، تدلَّى فكي السفلي، انزلقت على ذقني بضعُ قطراتٍ من لُعابي الجاف، أرى اسمي في صفحة الوفيات. تتحرَّكُ عينايَ تحت مِنظاري الطِّبِّيِّ في رويةٍ مع الكلمات والسطور، مع أسماء الأقارب وعائلات المتوفى. مسحتُ بيميني الرضاب المُنسابَ من زاوية فمي اليمنى، خلعتُ منظاري الطِّبِّيِّ، فركتُ وجهي بشدةٍ، وضعتُ المنظار الطِّبِّيِّ ثانيةً وبدأتُ في القراءة:

"يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي". صدق الله العظيم

تُوفِّيَ إلى رحمة الله – تعالى – الأستاذ أحمد حجاب داغر أبو حسين نجل المرحوم الحاج داغر أبو حسين وأخو كُلٍّ من محمود ومحمد حجاب داغر أبو حسين، وزوج السيدة هاجر أبو سريع بالبنك الأهلي وابن أخ وأخت كل من:.....".

نفس الاسم والأقارب والزوجة والخالات والأعمام. ما هذا؟ أأكون قد متُّ دون أن أدري؟ وهل يَخْفَى الموتُ؟ هل هذه مُزحةٌ من شخصٍ ما؟ وهل أُساوي عند أحدٍ مُزحةً تُكلِّفُ أموالًا؟ أتراني جُننتُ؟ تلبَّسني جِنيٌّ شارِدٌ فسكنَ جسدي؟ أم مَلَكٌ اعتراني فصرتُ طيفًا نورانيًّا بعد موت؟

بيدٍ مرتعدة من مفاجأة غير متوقعة، أُخرِجُ هاتفي المحمول من جيبي. أستدعي رقم زوجتي لأُهاتِفَها، أتحدَّث معها، في أي شيء، أسمعُ صوتها، عِتابَها على طول الوقت الذي أقضيه في الخارج، إهمالي لها وللأولاد. عصبيتها في الحديث، تأنيبها الدائم لي. المهم أن أسمعها، فسماعها يعني أن ما قرأتُه توًّا محض خيالٍ. مسٌّ من الشيطان. أو حِيلةٌ نفسيةٌ لأهربَ من واقعي. الحقيقة تتبدَّى عاريةً في لحظة واحدة، صوتُها حياةٌ، وهي حياةٌ واسمها "حياة".

أو فلأحدث أمي كي تذكرني بابن فلان الذي تخرج في ذات الكلية وشيَّدَ لأهله بيتًا، واشترى سيارة. وأرسل أمه إلى الحجِّ، والحياة الرغيدة التي يعيشها أهلُه، ثم تمصمصُ شفتيها وتهمسُ في حنوٍّ بالغٍ:

– لستُ أدري لمَ أنتَ قليل البختِ مثل أمك؟

في هذه اللحظة –وحدها– علمتُ أن من التأنيب حياة، ومن تحطيم المجاديف روح.

نعم للموت أحيانًا فوائد، فهو يأخذ الطيبين كي يُعلِّم الناس مِقدار خسارتهم. ويحصد الخبيثين، ليترك للبعض فُسحةً من الحياة، ويريح البعض من نهر المعاناة وعمق الألم.

ولِمَ أتَّصلُ؟ ألم يكن الموت أمنية كل ليلة حين هُجوعي إلى الفراش، كم رأيته الحلَّ والمَهْرَب! وليكن ما يكون بعدها، هأنذا ميتٌ بحسب الجريدة، بيد أني ما زلتُ مُتشبِّثًا بأمل في الحياة، عجيب جدًّا أن تكون ميتًا وتأمل في الحياة، بل ترى الموت ما زال يركض بعيدًا، لم يقترب، وليست له حاجة فيك.

أهتزُّ مع حركة المترو، قدماي ثابتتان، ألفُّ كوفية عتيقة حال لون مربعاتها البيضاء إلى اللون الأصفر الباهت، والمربعات التي كانت سوداء صارت رمادية، حول عنقيي. ما زلتُ أفتح الجريدة على صفحة الوفيات كعادتي، أقطعُ الوقتَ بقِراءة الصحيفة العتيقة، أتلو-هامسًا- وسط العربة المزدحمة، أُركِّزُ حتى لا يغادرني حرفٌ دون وقوعه تحت قبضة عيني، لستُ أدري أين ومتى بدأت هذه العادة، لكني أشعر أنها قديمة قدم شرائي للجريدة الشهيرة.

ربما في زمن الصِّبا الأول كنتُ أقرأ صفحات الرياضة أولًا، ثم صفحة الموتى والمغادرين، لعل ذلك كان تشبُّثًا بحُلم وجود قريبٍ ثريٍّ سألمح نعيه في الجريدة وأرثُه، أزفُّ البشرى لأبي فيمنحني مصروفًا كبيرًا يمكنني من مجاراة بعض الأقران وشراء حذاء رياضي بدلًا من اللعب حافيًا.

وربما في شرخ الشباب وثورته كنتُ أقرأ الصفحات السياسية أولًا كانعكاس لِما كنتُ أراه من حراكٍ سياسيٍّ في الجامعة، ورغبةً مني ألا أكون جاهلًا بما يجري حولي، وحلم يناوشني على فترات أن أكون

مناضلًا يُشار إليه بالبنان، غير أن هذا الحلم تخليتُ عنه بعد أول عملية اعتقالٍ رأيتُها في الحرم الجامعي، ونالت عددًا من الطلبة الذين اختفوا أعوامًا، يليها صفحات الراحلين في محطاتهم الموعودة.

يختلُّ توازني مع توقُّف مفاجئ لحركة المترو، منطقة ما قبل الوصول إلى محطة (الأوبرا)، انطفأت أنوارها، تعالى ضجيج الشكوى، وصراخ القلق، تململتُ في وقفتي، بعد استنادي على كتف من بجواري لأحفظ توازني، وما كنتُ في حاجة إلا ذلك فالأجساد متساندة من زحام خانق. نحافتي ظاهرة وقلق بادٍ منحوت فوق قَسماتي، ما الذي جعلني أختار المترو اليوم؟ أفٍّ لي، توقف الضجيج بغتةً، مع صراخ صوت ملتاع:

- اسمعوا!

تسيَّد الصمت الموقف كديكتاتورٍ يعدمُ كل من تجرَّأَ بالنظر إليه، فما بالكم بمَنْ خالفه؟ فكأن الجمع انتقل من الدنيا إلى الآخرة، في طرفة عين. صوت خرير مياه ينساب هادئًا واثقًا من مكان ما، صاحتِ امرأة:

- النفق يتهدَّمُ، النيل فوقنا، إنه الموتُ، افتحوا الأبواب، اهربوا، وهل من الموت مَهْربٌ؟ مِمَّنْ تَفرُّون؟

فُتِّحَتِ الأبواب، وتدافع الجميع في فزع، وهرولةٍ فوضوية، بعضُهم ذات اليمين، وبعضهم ظنَّ النجاةَ ناحية الشمال، لم أهربْ للحياة وأنا المنبوذ فيها، ولم أنزل من المترو وأنا الذي أكرهه. ما حكاية الموت اليوم؟ خبر في الجريدة، ثم نفق من الماء يتهدَّمُ فوقنا. لعله الموت

قد جاء. يرسل بعض الإشارات قبل انقضاضته الأخيرة. فإن كان مُنقضًّا لا محيص، فهل يُجديني الفَرارُ؟

أظن أن رصيدي أوشك على النفاد، مجرد مكالمة وحيدة لا يتجاوز مداها ستين ثانية، وبعدها صمتٌ مُوحشٌ، خلاءٌ بامتداد الخيال، حديثٌ بغير حُروف، وسَفرٌ بغيرِ متاعٍ.

يا ترى، فيمَ أُنفِقُ هذه الثواني؟ ومع مَنْ أُنفِقُها؟ سؤال قد تستغرق الإجابة عنه عمرًا بأكمله، ويتخطى التفكير فيه الثواني المُتبقية. أيُّ رياحٍ ألقت بي هنا في هذا الوقت؟

مكالمة تليفونية بالأمس من الصحفي والروائي اللامع (س) يطلبُ إليَّ أن ألقاهُ في مَكتبِه بالدقي، عمل صغيرٍ، سلسلة من المقالات حول نهر النيل والاتفاقات الدولية التي تحكم توزيع مياهِه على دول حوضه، وكل مقالة تكتب سيدفع مقابلًا لها مئتي جنيهٍ. على أي حال هو عمل جيد خاصة أن المقالات أسبوعية ستُريحُني من التفكير في أمر تدبير الراتب الشهري المفقود وتعويضِه.

فتحتُ تليفوني وقررتُ إجراء مكالمتي التي قد تكون الأخيرة، قائمة الهاتف تئنُّ من كثرة ما بها من أسماء، زوجتي، أمي، أصدقاء وأصحاب ومعارف بلا عددٍ، ولا عمل يرجى من ورائهم إلا أعمالًا أُنجزُها علَّهم يضعون أسماءهم فوقها، مَنْ يستحق الحديث الآن، المياه تتلوى كثعبان في النفق، الهديرُ يعلو، والضجيج يحتلُّ روحي، ليس

بسبب الماء وحده، فالضجيج يسكنه منذ زمن. الاختيار صعبٌ حدّ المستحيل في ظروفٍ كهذِه.

***

تفتحُ خِزانة الملابس –في هذا الصباح الباكر– لتعيد ترتيب الملابس الشتوية، وإنزالها، ورفع الأخرى مكانها. ما بين عملها وأولادها وأعمال المنزل لا يوجد لديها وقتٌ لأشياء كثيرة تودُّ فعلها. تبتسم في سخريةٍ، وتهمس لنفسها: ليس من بين تلك الأشياء الخروج والحلي يا حلوة، بل أشياء كترتيب ملابس الشتاء مثلًا، تتحول الابتسامة الساخرة إلى ضحكة ساحرة، فرصة، الأولاد في المدرسة وأحمد في عمله وأنا إجازة. وسحبتْ مقعدًا خشبيًّا للوصول إلى الرفوف العليا حيث الملابس الشتوية.

تتأمل بعض الكراسات القديمة حائلة اللون، تمسكها بحنينٍ، وتعود أدراجَها دون أن تفعل ما أزمعت فِعْلُه به:

– كراساتك يا أحمد. ما زالت هنا. ولكن أين أنت أيها الجميل الحالم؟ ضِعتَ مني في زحام الحياة، لم يبقَ ما يُذكِّرني بك إلا كلماتُك، كراساتُك القديمة، نبضاتُك التي تتراقَصُ طربًا وألمًا، شوقًا ووجدًا، عِشقًا وهُيامًا، وبعض من رسوماتك التي رسمت وجهي فيها لا بقلم بل بقلبٍ يراني على غير ما يراني الناس. كنتَ جميلًا، وأثِقُ أنك ما زلتَ. لكن جمالك غشيته كآبةٌ واعتراهُ قَهْرٌ، وأخفَتْه عني وجوهُ الحياة المُمعِنة في صفعِنا بالاحتياجات اليومية، عملي وعملك، متطلبات البيت

والعيال، آه لو تعود لي لو مرة كل أسبوع، يومًا كل شهر، أسبوعًا كل عامٍ، تنسى الدنيا كما كنتَ تفعلُ، وتذكرني وحدي.

تفتح إحدى الكراسات وتقرأ:

"... حبيبتي لن يكون في بيتِنا مقاعد، ما من ثمة مقاعد، ربما نشتريها لاحِقًا، ليس لنا، ولكن لمن يرغب في زيارتنا أو لقائنا، أما أنتِ فستكون ساقي مَقعدَك، وصدري راحةً لظهرِك، وقلبي مَسندَك. وروحي مُتَّكأكِ ومَهْدَك...".

حتى المقاعد لم تعد تضمُّنا معًا يا رفيق الروح إلا لِمامًا، سكن قلبها وهمد، لم تعد مشرقةً بابتساماتِك وروحك الشفيفة وأنت تقرأ لي ما خططتَ وكتبتَ. أين أشعارُك وقصصك ورواياتك وهي تتحول من كلماتٍ إلى نبضات ونظرات تخترق الضلوع وتستقرُّ في عمق الروح، تتجول كي تنثر كل جميل داخلي.

"... أنا لا أكتب ليقرأني أحدٌ، بل أكتب لأقطع الوقت في غيابِك، حتى إذا عدتُ قرأتُ عليكِ نبضي وأنتِ بعيدة، ولكن مهلًا لا تقرئي الآن، بل اسمعيني واقرئي إن كنتُ أنا بعيدًا، الكتابة تواصل بين قلبينا بين روحينا لا ينقطع حتى في الغياب...".

آهٍ يا حبيبي، كم اشتقتُ إلى تلك الرِّقة التي تحبسها رغمًا عنك داخلك! وأهرسها أنا فيك بكل الصراخ الفارغ الذي تعلم، لا تغضب مني فصُراخي ضعفٌ، وأنتَ قوتي، افهم: إني أصرخُ لتحتويني، أصرخُ لتعود إليَّ، أصرخُ لتقرأ عليَّ صفحات من قلبك البهي المحب العاشق.

" أن تواجه الحياة وأنتَ في العقد الخامس من العمرِ، دون عمل، دون دخل، دون ممتلكات تقيك شَرَّ السؤال. مسألة لا يمكن أن تصفها الكلماتُ، مُعضلةٌ كبرى تضرب الإنسانية في مَقْتلٍ وتُشوِّهُها، بثور تعتري وجهها، فلا تكاد ملامحها الأصلية تبين.

أنتَ بين موتين كلاهما عنيفٌ، كلاهما قاسٍ، لا قلب لهما، أنتَ مُؤهَّل للعمل، معك كل ما يلز، لكن لا عمل، عليك الآن الاختيار بين الموت فوق الأرصفة وبين بيع نفسك لمن يدفع. فإذا اخترت الأرصفة فتقبَّلْ بصدرٍ رحبٍ ضرْبَ النِّعال. ولسعات البرد فوق جدران الروح والبُعد عن الأحبة الذين لا تستطيع إعالتهم. وإن اخترتَ بيع نفسك، فستستخدم مؤهلاتك ومواهبك التي لا تُؤمِّنُ لك عملًا ولا تشفع لك عند من يملك لتعمل بأن تُسخِّرَها من أجله وينسبها لنفسه، ثم يقلب شفتيه امتعاضًا ويمنحك ما لا يكفيك كضمانة له ألا تبني ذاتك أو تستغنى عنه، كى تكون مُكبَّلًا به، مُقيَّدًا في مداره، مُسبِّحًا بحمدِه.

لم يعد لى سوى التشبُّث الطفولى والعناد إزاء بعض المواقف التافهة، كيما أشعُرَ بالحياة، أو أُشعِرُ من حولى بوجودي حيًّا. وغير ذلك، انسحبتْ مُفرداتُ الحياة من شراييني واحدة في إثر الأخرى. فقبضت على الطفل العنيد داخلي وحاولتُ إبقاءه داخل حدودي".

لم أكن أعلم أنك تتعذَّبُ هكذا بسبب العمل يا حبيبي. أهناك ما تُخفيه عني؟ أهناك ما يقضُّ مضجعَك ولا تُهْرَعُ إلى صدري؟ ولا تستكينُ كعصفورٍ في حِضني؟ أليست تلك كلماتَك؟ أليس ذلكَ عهْدَك؟ عندما تعود اليوم لن أصرخَ، لن أغضبَ، لن أشكو. بل سأسمعُ منك شكواك.

(٢)

يتخلَّص السِّرُّ من الأسوار المضروبة حوله فيجلو ويظهر لكل ذي عين. في إحدى العربات غير المزدحمة خلافًا للعادة في هذا الوقت المبكر من النهار، يلتفُّ الجميعُ -في حلقةٍ محكمة-لا يكاد ينفذ منها الهواء- حول أحد الأشخاص. سترةٌ غالية ووجه نضير.

يصرخ الرجل فيمن حوله:

- ماذا حدث؟

تطوَّعُ أحدُ المحيطين به للرد:

- تعطل المترو يا باشا.

- وكأني لم أعِ هذا!

تفحَّصه بنظرةٍ مُحرقةٍ فلاذ بالصمت القَلِق. تنقَّل في وجوه من حوله، توقَّفت عينه عند أحد الأشخاص، قرَّب الرجل جهازًا صغيرًا

من فمِه. أخشى أن تكون عملية إرهابية، نعم تعطَّل المترو قُبيل محطة الأوبرا،

- تصرفوا.

حلّ الباشا رابطة عنقه.. حَرِّرْ عُنقَك من كل قيدٍ تعشْ سيّدًا وإن كنتَ فقيرًا.

هكذا قال له أبوه ذات يومٍ بعيد، لم أحررها قط، بل تفننت في اختيار قيودٍ وسعيتُ لها، كي تصعد بي إلى حيثُ أريدُ، وقد فعلتْ وحرَّرَتْني من الفقر عكس ما قلتَ يا والدي، رَحِمَك اللهُ، كنتَ تعيش على الفُتات، ولم تكن تملك طموحًا رغم ما منحتك الحياة من مواهب جَمَّة في العقل والتفكير والجسم، انظر ماذا فعلتْ تلك المواهب معي، وكيف استغللتُها فأحسنتُ استثمارَها، وحققتُ ما لم تحلم به قط. وما زلتُ أفعل. ولكن هل يكون اليوم هو اليوم الموعود؟ لا لن يكون كذلك. أزمة عابرة كغيرها.

- "يا لك من فتى، تمرُّ من الحديد بيسرٍ!"

اتسعت ابتسامته وهو يتذكر تلك الكلمة التي طالما لاحقته في البيت، وفي المدرسة، وفي الجامعة، وحتى في العمل. أخرج هاتفه من جيبه وطلب رقمًا ما:

- معالي الرئيس.

- يبدو أن هناك عملًا إرهابيًّا في أنفاق المترو، لا أنا هناك، معهم أُتابعُ الموقف عن كثبٍ، فقط أحببتُ أن أخبرك لتكون أول من يعلم، لا تقلق معاليكَ. كأنك هنا.

وضع الهاتف في جيبه. تمتم في خفوتٍ: رُبّ مكالمةٍ تقطعُ نصف الطريق إلى الكرسي الكبير. تكونت حبات عرق من بين مسام وجهه الحليق. لمعت تحت ظلال الكشافات الصغيرة المتناثرة في أيدي الرجال من حوله. بعضهم تعجَّب لها فالجو شتاء، ولم يلمحوا قطرة عرقٍ على وجه الباشا طول خِدمتهم معه. وآخرون اعتبروا ذلك دليل خوفٍ، فامتعضوا من وجلِ الباشا من لحظة سرعان ما ستمرُّ.

"عباس" وحده، خارج الحلقة المضروبة حول الباشا، رقَّ قلبه له. بكى. ما أصعب ضعفنا في مواجهة الأقدار! يهتف فيمَن حوله بغيظٍ: الجو خانق. تطوَّع عباس بشاربه الكثِّ ووجهِه الأسمر منحوت التقاطيع -مُخترقًا تلك الدائرة- بأن يُحرِّكَ ملفًّا ورقيًّا كان بين يديه، أمام وجه الباشا. لعله يستجدي بعضًا من الهواء أن يُداعِبَ وجهه ويرفق بحاله، رُسُلٌ من طمأنينة قد تفعل الكثير مع القلوب الوجلة، أو لعله يذكرها له بعد انتهاء هذا الموقف.

منعه أحد رجال الأمن المحيطين بالرجل من الوصول إليه. أحد رجال الحلقة يصيح: - أرى أن ننزل ونقطع الطريق إلى محطة الأوبرا سيرًا على الأقدام، فهي لا تبعد عنا أكثر من مئة مترٍ، نستطيع قَطْعَها في دقيقتين لا أكثر وينتهي هذا الموقف.

- هل تضمن ألا يكون عملًا إرهابيًّا؟

هكذا ردَّ آخر. وتابع ثالث ما انقطع من حوارٍ:

- وأن المقصود أن ننزل كي يحصدوا أرواحنا أو يستهدفونا بعبوة ناسفة؟

واصل الأول بإصرارٍ وكان أعلاهم رتبةً:

- ربما يكون وربما لا، وأظنُّ النزول هو القرار الأكثر أمْنًا، جهزوا أسلحتكم وهلمُّوا بنا.

(٣)

توقَّف المترو في تلك الساحة المظلمة. وانطفأت أنواره بغتةً. متلاصقان يقفان، كَفُّها بين كفيه، عِناقُ الأكفِّ يُشعِل أفئدة العشَّاقِ، ويُطمئنها بأن الوصال يجد سبيله بين العاشقين مهما تكن الأسوار مرتفعة والعيون محدقة. الفتى عاشقٌ، والعِشقُ نارٌ وحِصار. أنَّى لقلبه البكر احتمال اضطرام الحنين. ومسالك اللهفة. ودروب الوجد. أنَّى للجُدران الخضراء احتواء النار والدخان يغتال براعم الصبر. والوقت سيفٌ يقتل في طريقه دَرْبَ الوصول إلى الشاطئ البعيد.

أشياؤه الصغيرة البريئة تُحاوِلُ المقاومة. القفز فوق اللَّهب. إطفاء الحرائق المُتناثرة فوق جدران الأوردة والشرايين. ربما رسالة يبثُّ فيها لواعِجَه. أو ابتسامة تبلُّ صدى الاشتياق. أو نظرة بين الجموع تستقرُّ في فؤاده فتطمئِنُ النبض أن القلب للقلب مهما تزْدَد الحشود.

الفتى يُتلِفُه الصبرُ، ويأكله الأملُ فلا يبقى منه غير حلمٍ وحيدٍ يناضل كي يُبقي رأسَه فوق الماء. ظنَّها العاشقان فرصة لعناقٍ خاطفٍ يروي الشوق. يبلُّ ظمأ الجوارحِ المُلتاعةِ، ويُطفئ لظًى في القلوب

مُستعِرًا. طوَّقها بذراعٍ واحدة. نصفها شوق والآخر لهفة، وفي العقل منطقة يقظة-لعل المترو يتحرك- أو تُضاء الأنوار فتبينَ للأعينِ لَوعةُ العُشَّاق. ألقت برأسها على كتفه. استكانت، كعصفور أضناه الطيرانُ ووصل عُشَّه. يدقُّ قلبها كزلزالٍ مُدمِّرٍ يدكُّ السُّوقَ والأعناق. ترتعد، يربت بيد الحنان ظهرَها.

تنطلق الصرخاتُ، وتضجُّ العربة بصيحات الهَلَعِ. يَضمُّها إليه أكثر، يحميها من أصواتِ الناس خشيةَ أن تُصيبها وتُصيبه. فيفيقان من نشوةٍ تملكتهُما، أو تسرق حلمًا ما زال طور الرَّضاع.

ماء النيل يتسرب إلى النفق، الموت قادمٌ لا محالة. البعض يتمتم بكلمة التوحيد، والآخر يُناجي المسيح. الموت لا يتوقَّف أمام تلك الفوارق، الموت يحصد أرواح الجميع بلا حسابات. دون النظر إلى سنٍّ أو جنسٍ أو لونٍ أو دينٍ.

- حامد..

هتفت سلوى، وتشبَّثت به في رجاء. يشعر بدمعة أفلتت وقد بلَّلت قميصه.

يحتويها بذراعيه، يرفع رأسها بيده، لا تخافي يا سلوى، معًا سننجو، وإن كان من الموت بُدٌّ. فلأمتْ وتحيي.

- أقطعتَ كل تلك المسافة لتراني أم لتموتَ معي؟

قالت في نحيب. ابتسم قائلًا:

- بل قطعتُ المسافة من وحدتي العسكرية في ست عشرة ساعة لألقاكِ وأكون رجلَك الذي وعدتُ، مررتُ بالمنزل سريعًا، كي أغيِّر ملابسي. أتصدقين؟ لم أجد أحدًا مستيقظًا. ولم أشأ إيقاظ أحد حتى لا أتأخر عليكِ، ارتديتُ ملابسي وهُرعتُ إلى المقهى المقابل لمحطة المترو كي أنتظرَك، ارتشفتُ فنجان القهوة على عجلٍ، بغير استمتاع به. وارتقيتُ درج سلم المحطة كي ألقاكِ حين تأتين، لأني أحفظ جدولك مثلما اسمي. ولم أكن أدري سببًا لتوسلي لقائدي أن يمنحني إجازةً ثماني وأربعين ساعة فقط. بُحَّ صوت الرجل ليقنعني أنها غير كافية لأي شيء ولأنتظر حتى عودة دفعة الإجازات وسيمنحني ساعتها إجازة عشرة أيام، لكني تمسكت بعنادٍ بمأمورية صغيرة شوقًا إليكِ يا حبيبة قلبي.

رَفَعَ ذقنها الدقيق بكفِّه، ونظر في عينيها الخضراوين الواسعتين ووجها المستدير الدقيق الأبيض: ثقي بي سننجو.

(٤)

بقايا جمالٍ قديم تملأ وجهها، وحزمٍ يبدو جليًّا في تقاطيعها الصغيرة المُنمنمة، ترتدي الجلباب الأسود، وتلفُّ طرحة من اللون ذاته حول وجهها، فبدا الوجه كقمرٍ يسبح في سماء مظلمة. تضع بجوارها (سبتًا) مغطًّى.

تتحرك شفتاها في تمتمةٍ غير مسموعة. وأثناء ذلك تتفحص الوجوه المحيطة بها، وتتأمل الثياب وتتعجب مما لحق بالبنين والبنات حولها، ذاك الولد الذي يُطيلُ شَعْرَه كما الإناث، بل يُضفِّرُه أيضًا لو جاء هكذا إلى القريةِ لالتهمه شبابها، ولن يغادروا منه شيئًا. وتلك الفتاة ذات البنطال، العجب كل العجب، تقصُّ شعرها وترتدي قميصًا ولا يبرز من تحته شيءٌ، بل جسد مستوٍ بلا تفاصيل ولا انبعاجات أنثوية من أي نوعٍ، ولولا حلقٌ صغيرٌ لحسبتها ولدًا وربما تكونُ.

غريب أمر هذا القطار المزدحم، ذي الدرجات الكهربائية التي تصعد وتنزل وحدها دون أن يبذل الإنسان جهدًا يُذكَرُ في ارتقائه أو هبوطه، يسير تحت الأرضِ. ويمُرُّ تحت الماء ويقطع المسافات الطوال في وقت يسير.

- الإنسان لا يغلبُه إلا الموتُ أو الجِنيُّ المارِدُ، سلامٌ قولًا من ربٍّ رحيم. ربنا يجعل حديثنا خفيفًا عليهم. إيهٍ يا أبا سليمان، لولا مرضُك ما جئتُ إلى المحروسة، يطول الطريق لكنك تستحقُّ كل خيرٍ فكم وقفت بجوارِنا وساعدتنا بعد اختطاف الموت (غندور) على غير موعدٍ.

وانطلق الصراخ. انطفأت الأنوار، وظنَّت (زينب) أن هذا الأمر برمَّته مُدبَّرٌ لسرقة (السبت) وما يحتويه من خيراتٍ زيارتها للمريض. فانكفأت على وجهها وقبضت عليه ككنز ثمين. تعالى الضجيج وتداخلت الأصوات في عربة المترو.

- جدار النفق يُسرِّبُ المياه.

- سنغرق.

لم تعد تتبين من الأصوات شيئًا. انطلق العويل كاسحًا، قويًّا، هادرًا كنُذرٍ تليق بالموت في هذا الصباح الخريفي البارد.

- هل قطعتُ كل هذه المسافة لأموت هنا؟! لأختفي كما اختفى (ناصر) أخي ذات يوم -في العراق- وتنقطع أخباري كما أخباره. لمن أترك أبنائي؟ أبدًا. لن أموت هنا!

أحكمتْ رباط طرحتها حول رأسها، ورفعت جلبابَها الأسود قليلًا وربطت طرفيه حول وسطها، فانحسر عن ساقيها وأظهر سروالها، فالجلباب قد يعوق الهرولة، وقفزت من باب المترو الذي فتحه بعضُ الشباب وخاضت في الماء مع الخائضين. لم تُزعِجْها المياهُ، لم

تُؤرِّقْها مُقاومته لسيرِها، فقد اعتادتها من طول تمرُّسٍ في ري الأرض ومكابدة الماء والطين في الحقول الواسعة.

ومع أضواء الهواتف المتناثرة في الظلام، تبدو زينب كظل أسودٍ مهيبٍ، يتراقص مع حركة الأضواء المتحركة واستقرار سبتها مكينا فوق عرش رأسها يكاد لا يتحرك. أغمضت عينيها لحظة، تستجمع شجاعتها. تستنهض إرادتها، أو تتذكر بعض نصائح قيلت لها ذات يومٍ ولم تدركْ لها معنًى. ربما يبدو معناها الآن جليًّا واضحًا.

(٥)

يقف "حسن" وسط العربة المزدحمة، يطلُّ على الناس من علوٍّ. يستند بيسراه على جدار المترو، وتحتلُّ يمناه مسبحةً مئوية، تتحرك حباتها بين أصابعه في يسر وسهولة وسرعة. شفتاه تتمتمان بما شاء له الذكر.

هذا دأبه كل صباح في طريقه إلى وزارة الثقافة حيث يعمل محاسبًا. ينزل من مسكنه في تمام الساعة السابعة إلا الربع يوميًّا. عشر دقائق ويصل محطة مترو عزبة النخل، فيجد المترو على وشك التوقُّف، يقذف نفسه داخله. ويغيب عن الناس ونفسه مستحضرًا الخشوع في ملكوت الأذكار. لا يفيق إلا في محطة الشهداء، ضبط الجسد نفسه عليها، ينزلُ في آليةٍ ليركب مترو الجيزة، ليبدأ جولةً جديدة من التسابيح تنتهي بمحطة الأوبرا.

شعورٌ غريب اعتراه أن اليوم ليس كالأيام السابقة. فيه شيء مُختلف، أمر ما سيحدث، خيرًا أم شَرًّا؟ ليس يدري. ما يدريه أن الأذكار لا تسير وَفْقَ ما تعوَّد، وفق ما كانت، تقطعها أفكارٌ عبثيةٌ وأسئلة بلا إجابة.

لم يكمل عدة ما فرضه على نفسه في المسافة الفاصلة بين محطة عزبة النخل ومحطة الشهداء. فآلى على نفسه أن يُعوِّضَ ذلك في المسافة بين الشهداء ومحطة الأوبرا. يبدأ أذكاره بالصلاة على النبي. يستنهض همته. ويستفتح شيخه. آه هو الشيخ لعل عدم وجوده هو الحدث اليوم. هزَّ رأسه نفيًا لهذا الخاطر. أيامًا كثيرة لا يأتيه الشيخ. ويزيد من ذكره وتسبيحه واستغفاره حتى يرضى ويأتيه. السبحة تتحرك كعادتها بين أصابعه. وشفتاه تتحركان، الذكر لا يستقيم مع حركة الأصابع، الذكر متباطئ. ما الخبر؟ ما المخبّأ في صفحات الغيب؟ نعم جناحا الليلِ يُخبِّئانِ الكثير من الجرائم والأسرار والمؤامرات. لكن النهار ليس بريئًا براءة الذئب، فخلف جدرانه، بعيدًا عن عين الشمس تسكن خبايا لو قُدِّرَ لها الظهور لتغيَّر وجهُ الأرض، ومصائر البشر.

بين جناحي الليل وجدران النهار، علاقة آثمة، ينفخ فيها الشيطان كي تستمر، كي تنمو، كي تستحوذ على عوالم الحالمين، وتستوطن أراضي الطيبين، وتطرُد كلَّ فضيلةٍ وتستخلف نفسها في الأرض.

يلتفت يمينًا، يجد الشيخ بجواره، يبتسم. وتزيد حركة شفتيه. إشارة دالة على اتساق الذكر. هكذا الشيخ يظهر فجأةً ويختفي في مثلِها، لا أحد يدري متى يجيء ولا متى يُغادِرُ، رؤيته طمأنينة، ووجوده بَرَكَة، مغادرته حنين، وانتظاره أمل. لم أعد أُهْرَعُ إليه حين يأتي. حيث نهاني غير مرةٍ، ولا أجزع إذا مضى، فقد أخبرني أن روحه معي.

أُغمِضُ عينيَّ وأنطلق. بقعة نائية، أعرفها جيدًا، اخترتُها بنفسي لنفسي في جبل المقطم. أذهب إليها بغير ترتيبٍ، كلما شعرتُ بالحاجة إلى الخلوة بنفسي، أُهْرَعُ إليها. أرتدي جلبابًا تُرابيَّ اللون. أصعدُ الطُّرقاتِ الملتوية، ينحدر العرق فوق جبيني وتحت إبطي. أستندُ إلى تلةٍ صغيرةٍ، أدورُ حولها، مكان سويته بيدي أجلس إليه. ربما جلست ساعةً، وربما أجلس يومًا وبعض يوم، وذات مرة مكثتُ ثلاثة أيام. لا كلام، فلا أحد معي، لا مُحادثات هاتفية، فالتليفون أتركُه، لا شيء ولا أحد إلا هو ونفسي.

هذا البراح غير المحدود، أطلق فيه الروح، تصعدُ، وتعود. تقصُّ عليَّ وأستمعُ لها.

أفتحُ أبواب القلب لكل طارئ أو هاتفٍ أو إشراقةٍ قد تهبطُ إليه. اختلاؤك ليس هناك. اختلاؤك هنا. وأشار إلى قلبي. قالها شيخي ومِنْ يومها أُغْمِضُ عينيَّ وألوذ بقلبي طلبًا للخلوة والذِّكر.

أهزُّ رأسي نفضًا للأفكار التي تُراوِدُني وأتوجَّه بكُليتي ناحية الشيخ. قلبي يُحدِّثُني بأمر، قلتُها في نفسي: وكان أمر الله قدرًا مقدورًا. ردَّ الشيخ كأنما قرأ صفحة خاطري.. توقف المترو بغتةً وانطفأت أنوارُه.

عينُ المُحبِّ يا سيدي ترى ما لا يُمكنُ لأخرى أن تراهُ. وهي تَعْمى عن رؤية ما يراهُ الناس في المحبوب من نقائصَ ظاهرةٍ.

هي لا ترى إلا كُلَّ جميلٍ. تُعظِّمُه حتى يملأ مدى البصر وحدَّ البصيرة.

إلا عين واحدة. ترى المحبوب دون قدره. لا عن كَلَلٍ بها أو مَرَضٍ اعتراها، لكن نور محبوبها يغشى الأعينَ. فلا تنفتحُ في حضرتِه، بل تَغمُض، تسجُدُ، تدعو.

٧:٤٠ ص

(١)

في قلب الفزع واللغط، صرخ صارخ: فلتنزلوا، فلن ننتظر الموت، وإن أتى فليتعقبنا وليأخذ منا ما شاء، المهم أن يجدنا ساعين للنجاة. آخذين بأسباب الحياة. فهبط الجميع من المترو، لا يدرون أي دربٍ يسلكون. وفي أضواء الهواتف المحمولة وقف " حامد عزيز" حليقًا، رشيقًا، شامخًا كأنه النجاة، ووراءه سلوى تحتضن كتابًا جامعيًّا وتختبئ في ظلِّه.

يخاطب الجموع:

– الماء يأتي من ناحية محطة الأوبرا. ووفقًا لما أراهُ فالتسرُّب ليس بالحجم الذي يُخيف. فلنمضِ ناحية محطة السادات. اطمئنُّوا ولا يقتلنَّكم فزعُكم، فحسبما قرأتُ فالمسافة من هنا إلى المحطة القادمة لا تتجاوز كيلومتر واحد، يقطعها الإنسان سيرًا في حدود عشر دقائق، وقد تزيد قليلًا. والدقائق تلك لن تسمح للماء بإغراق النفق إذا نظَّمنا أنفسنا، واستعان بعضُنا ببعض، لنسر بقدر أضعفنا. ولا نترك وراءنا أحد. لنتساند ونتعاضد ويحسن بعضُنا إلى بعضٍ. قدِّموا الأطفال

فالشيوخ من الرجال والعجائز من النساء، ثم النساء، وليسر الشباب في آخر الناس. والتفت وراءه فوجد ظلًّا واقفًا في منتصف العربة لا يتحرك.

- هيا بنا يا أستاذ... أنت.

وحاول على هدي أضواء الهاتف أن يتبين ملامحه، لمحه فعرفه، جاران في شارع واحد، الأستاذ/ أحمد حجاب، هيا. بعدك يا حامد. قالها حجاب في هدوء من لا يخشى شيئًا أو قرَّرَ أمرًا فاطمئنَّ قلبُه. ومد عينه نحو حامد. المواقف الكبار تنزل الناس مكانتهم التي يستحقون. والتي ربما لا يعرفونها في أنفسهم. والشدائد تفرز القيادات الطبيعية للبشر دون وساطات أو محسوبية. أو حسابات شخصية أو منطقية.

أمسك حامد بيد سلوى وألقيا نفسيهما في الماء. الماء يرتفع عن الأرض شبرًا. يتلوى باحثًا عن منفذٍ يفرُّ إليه. والأمل نهر يسابق الماء نحو شرفة يتشبث بها، وسلوى تفتح حقيبتها وتعبث بهاتفها المحمول. ماذا؟ أُحدِّثُ أمي. ستقلق. صوتُها يبعثُ الأمن في روحي. حدِّثيها بعد الخروج. قد لا يكون خروج. سنخرج. لكني أحتاجها.

في غمرة انشغالها بهاتفِها، سقطت بعد تعثُّر قدمها في الحجارة المتناثرة على أرضية النفق. أفلتت يدها من يده وباعدت الظلمة بينهما. ارتكنت على الجدار ووضعت الهاتف على أذنها:

- أمي، إني خائفة يا أمي. أنا مع حامد، أعلم أني أرتكبُ خطأً، لكن هو الآن الأمل. لستُ أدري أين هو؟ لكني أثق أنه سيجدُني. سأُخبرُه.

واستسلمت لضعفها. مُسلمةً الذاتَ للأقدار تفعل ما تشاء. أنهكتها الحجارة المدببة مع ضياع حذائها، ومقاومة الماء والخوف زادا في ضعفها. والمجهود الذي تبذُلُه نال من قواها الهَشَّةِ. وكاد أن ينال من عزيمتها ورغبتها في الحياة. وقعت في الماء، وسلمت القياد للتيار يذهبُ بها أنَّى شاءَ.

- سلوى..

يصرخُ جنونًا. عيناه تجوبان الأرجاء المظلمة. يتحسس بيديه الماء. قلبه يخفق ويهذي. أهكذا تكون النهاية تائهين. كلٌّ منا في طريق. ما الحياة بعدها! ما الحب إن لم تكن سلوى! سلوى. يدور حول نفسه في فزعٍ. يكور كفيه ويعيد النداء.

لا أحد يلتفت للنداء. الكل حوله يجري، ينجو بنفسه، والنجاة عنده وجودها. لقد وعدها أن يبقيا معًا، أو يموت هو وتبقى هي.

الأقدار تتقاذفنا حيث تشاء، لا حيث نشاء، لكن الأقدار كما قيل له رحيمة في بعض الأحيان، تكافئ الساعون، لن يتركها. لن يغادر النفق بدونها. آهة خافتة. التقطها قلبه. توجَّه نحوها فوجد حياتَه. لصيقة بالجدار. ضربها التيار. فشجَّ الجدارُ رأسَها. تعاني البرد والاستسلام،

وتخشى مواجهة الموت. مدت يدها نحوه تستجديه أن يفي بوعوده، أو أن تموت على صدره، جذبها نحوه، رفعها على كتفيه. قالت: كم تحبني؟

أحبُّك بلا كم ولا كيف، بلا حدٍّ وبلا مُنتهًى، بلا بدءٍ وبلا ختامٍ، أحبُّك حبًّا صافيًا جميلًا نبيلًا مُجرَّدًا، لا ألمسك ولا أقترب منك، فلمسة منك قد تفنيني، والاقتراب منك ربما يحرق أوردتي وشراييني. أحبك عالمًا بأسره من آدم إلى القيامة. أحبك لو وزعت حروفها علي نساء الكون لعشقنني. ولو وزعتُ إحساس الحروف على العاشقات لتولهن في حبي. أحبك زاهدًا في الدنيا عدا مذبح عينيكِ . أحبك عاشقًا لوجودي في حياة أنت فيها . أحبك وكفى.

قالت في وهنٍ:

– حدثتُ أمي وأخبرتها بما يحدث. حسنًا قالت لي أن أخبرك: لو أخرجتني كما وعدتَ. سأكونُ لك. أتعلمُ أمرًا؟ ماذا؟ أمران فقط يحزنانني كثيرا، أنك قد تموتُ اليوم بسببي، وأني كنتُ وعدتُ والدتي ألا أراكَ بيد أن قلبي خذلني.

ربت حامد على كتفها هامسًا:

– أما أمر والدتك فقد كفاك اتصالك همه وأخبرتها. وأما موتي فلا تقلقي، لن أموت ولن تموتي. هيا بنا.

وحملها فوق كتفه وسار مع النفق. مع الجموع. منحه الحب طاقة تتجاوز معاناة الوجع والخوف والظلام. شق طريقه بحمله. نحو

الطرف البعيد. نحو الأمل إن كان ثمة أمل يسكن الظلام. أو ينتظر هناك حيث يصلون. أيهما يسبق الماء أم الأجل؟ ليكن ما يكون. تكفيه سلوى.

تعجَّب من نفسه: أهو هو، أم غيره؟ إن أصحابه ينعتونه بالأناني، وأمُّه تردد دومًا على مسامعه: "لا تهمك إلا نفسك وبطنك، يا دنيء". أهو الحب الذي يغير الإنسان؟ أم الموعد مع الموت ومصافحته يستخرجان منه رجلًا لم يكنه من قبل، دع هذه الفلسفة الفارغة عنك الآن واتبع الدرب نحو الخروج.

(٢)

يتزايد تسرب الماء، ينهمر من شُقوقٍ في جسم النفق الإسمنتي، يتحول إلى ثعبان ضخم يتلوى في أثر الناس، يُصدِرُ أصواتًا تصطك منها القلوبُ، يعوق حركة الأقدام، يُكبِّلُها دون قيدٍ، يرتفع في النفق ليصل إلى ركبتي رجل متوسط الطول، يبدو أن الموت يطلب البعض من الفارين بحياتهم، يسعي حثيثًا صارمًا في تنفيذ مهمته.

لم يستطع الرجال الأشداء فرض حلقة محكمة حول "الباشا" وسط النفق المظلم، بل سار ثلاثة أمامه، ومثلهم خلفه، وبعدهم "عباس" الساعي. يتلفتون حولهم في تتابع دقيقٍ وتنفيذٍ محكمٍ لإجراءات حماية الشخصيات المهمة، يدُهم على أسلحتِهم، وأعينُهم ترصد الناس وتقيمهم استعدادًا للتعامل فور الشعور بأقل قدر من خطر.

بعد الخوض في الماء نحوًا من دقائق خمس في اتجاه محطة الأوبرا-لم يقطعوا خلالها أكثر من عشرين مترًا- يقرر قائدهم تغيير اتجاههم مع اتجاه الناس. فبدلًا من السير في اتجاه محطة الأوبرا، استداروا ليسيروا في

اتجاه محطة السادات، وذلك بإشارةٍ من يَدِه. ونظرة فهموها على الفور، فأصل البلاء من هنا. فم الموت مفتوح عن آخرِهِ ويُغلِقُ الطريق تمامًا إلى محطة الأوبرا. يسُدُّ سُبلَ الحياة. ويتصيد –بغير جهد– مَنْ يُلقي نفسَه إليه. الموت يسدُّ المخرج القريب للنفق. يطارد ضحاياه نحو المخرج البعيد. يناوشهم فمَنْ سَبَقَ فيهم فاز. الموت صيادٌ ماهرٌ، ما أفلتت منه طريدةٌ قط.

تيار الماء صلب، قوي، عنيف، ثقيل، الأجساد أنَّت، والموت يطلب الجميع أو هكذا يبدو، يُحرِّكُ "الباشا" قدميه بصعوبةٍ في الماء. فطول الدعة يُضعِفُ الجسد، ولا يُغني عن ذلك بعض التمارين الرياضية على عجلٍ، فلم يكن هناك وقتٌ للاهتمام بمثل هذه الأمور في سباقِهِ مع الزمن للحصول على ما يبغي بأية وسيلةٍ وإزاحة من هو حُذوه أو مَنْ يعلوه ليحلَّ محلَّه، هذا دأبه، وتلك مِنَحُ الحياة له.

موجة عاتية من الماء تجري في أعقابهم، صوت الماء إنذار بخطرٍ وشيك، خطرٌ لا تُجدي معه مقاومة بأسلحةٍ نارية، ولا ينفع معه حلقةٌ أمنيةٌ مَضروبةٌ حوله، بدأت خطواتُ رجال الأمن تتَّسعُ، يَشدُّونه معهم للهرولة، قدُراته تخونُهُ، ورغبتُه في النجاة تدفعه دفعًا لمُواكبةِ سرعتِهم. و"عباس" في المؤخرة يسعى سعيهم، يَراهُم ويتعجَّب. هل يسعون لنجاة الرجلِ، أم تَفِرُّ أنفسُهم من الموت القادِم خلفَهم؟ أمام الموت لا شيء يبدو غامِضًا، كل شيء ينجلي ويظهر، لا مُحاباة لأحدٍ على حساب الحياة، لا سلطان ولا ملك، لا صغير ولا كبير، لا غني أو فقير. الكل سواء.

اشتدَّ طوفان الماء ضراوةً، ضرب المسئول بقبضتِه العملاقة في ظهرِه، دفعه نحوًا من مترين، في خلاء النفق المظلم، صكَّه بشراسةٍ بالجدار الإسمنتي الصلب، فتشبث الرجل -برغبته في النجاة- وأمسك بأحد القضبان الحديدية المُثبَّتة في الجدار، بينما رجاله كلٌّ في ناحية. طَفِقَ كلُّ رجلٍ منهم يبحث عن النجاة بنفسِه، ولنفسه، وهو يصرخ فيهم لينبههم إلى مكانه، لم يلتفت إليه أحدٌ، حتى مَن التفت ألقى عليه نظرةً خاطفةً، خاويةً من التعاطُف أو المُساعدة، أو ربما تحمل اعتذارًا فأمام الموت كلٌّ ينجو بنفسِه ولا يُفكِّرُ إلا فيها، ثم يُولِّي نحو الدرب لعله ينجو.

كم نحن جبناء! كم نحن ضعاف أمام تلك اللحظة المهيبة! ولا نتذكرها أبدًا إلا حينما نراها أمامنا! لكن ضعفنا يُناشِدُنا بالتشبُّث بأمل واهٍ في النجاة والفرار، فيتوسَّم في كبيرِهم خيرًا لا يوجد، أو تضحيةً لن يفعلها، بحُسبان أنّ له يدًا عليه، فيهتف به:

- يا حسين. يا حسين. اعذرني يا باشا فالأولاد لا أحد لهم سوايَ. ولا شيء تركته لهم قد يتعيشون منه.

فَهِمَ المسئول المغزى من الحديث، أفلتت من عينه دمعةٌ ولِسانُ حالِه يقول: أنا الذي صنعتُكم يا أولاد الكلب، أنا الذي منحتُكم بيوتًا وسياراتٍ وحساباتٍ في البنوك، أهكذا تتركوني؟ أهكذا تفرُّون مع أول مواجهةٍ؟ سحقًا لكم. ألستُ أنا الذي لم أتركك قط يا حسين؟ كلما ترقيت إلى منصب جديد أخذتُك معي، ألم أصنعك؟ أُبدِّلُ حالك من فقر لغنى.

ضاعَ صوتُه مع اختفاء حسين في ظلمة النفق بحثًا عن بصيص من أمل للعودة لرؤية الشمس.

- ولا يهمك يا باشا أنا معك.

انطلقت العبارة كردٍّ على ما جال في خاطره. كأن قائلها قرأه أو سمعه. التفت فوجد عباس، ساعيه.

- أنت؟

- نعم يا باشا، العشرة لا تهون.

- أسند يدك على كتفي وربي وربك يفعل ما يريد.

شملهما الصمت. وفي الصمت تختنقُ العِبارات، وتنمو المعاني الكِبار.

(٣)

لم يهبط من عليائه كما هبط غيره. لم يفزع كما فزع الجميع. هادئٌ. تكتسي ملامحه بخليطٍ من الطُّمأنينة واللامبالاة. طافت عيناه القلقتان أرجاء عربة المترو التي هَجَرَها الناس. يتأمل قائمة الأسماء في هاتفه المحمول. الموت قادمٌ في وقت لم يتوقَّعْه. لكنه كان كريمًا فمنحه بعضَ الوقت. ربما ليُجري اتصالًا أخيرًا، أو ليستعرض الأعوام الأربعين التي مرت. وربما لحكمةٍ يجهلُها. منحهم الموتُ فرصة للنجاة. هكذا قد يبدو الموت كريمًا. يضعهم بين فكيه. ويصرخُ فيهم: فِرُّوا. نصب للمختارين منهم مصائد متعددة. مَنْ يقعُ لَحِقَ به ورفرف بالنفخة المُقدَّسة إلى مُستودعِها وأصلِها. ويترك الطين للأرض.

توقَّف أمام اسمه على شاشة الهاتف، اعتاد أن يكتب رقم هاتف زوجتِه باسمِه، حتى إذا سُرق الهاتفُ أو وقع لا تحدُثُ مُشكلةً، أو مُعاكساتٍ. فكثير من الشباب يجمعون أرقام السيدات ويبدؤون في إجراء المعاكسات. وحدثته نفسه: هل أُحدِّثُها؟ أُودِّعُها. أوصيها بالأولاد خيرًا. أكشف لها ديوني. وأين كنت أقضي الأيام من لحظة

خروجي من المنزل حتى عودتي؟ طُردتُ-منذ عامين- من العمل. لم أجد عملًا آخر. ولم أجرؤ على مُصارحتِها والأولاد بذلك. أخرج كل صباحٍ بدعوى الذهاب إلى العمل. لأبحث عن عملٍ أو لأتسكع في طُرقاتِ المدينة بغير هدفٍ. أدلُفُ إلى المساجد كي أصلي وأستريح وأنام قليلًا، ولي مآربُ أخرى.

يشغلني طوال الشهر كيف أجمع مبلغًا يُوازي راتبي الذي أُسلِّمُه لزوجتي كل شهر. أحيانًا أقترضُ، وأحيانًا أُقدِّمُ خِدماتٍ لبعض الأصدقاء والمعارف مقابل قروشٍ قليلة. وكم من مرةٍ بعتُ بعضًا من كتبي! وكتبتُ مقالاتٍ ينشرونها بأسمائهم! فعلتُ الكثير على مدار العامين السابقين لأُوفِّرَ لهم الحد الأدنى من المعيشة، ولم أحملهم نفسيًّا آلام رَبِّ أسرةٍ عاطلٍ وجِراحاتِه. واقترفت الكثير من الكذبات البيضاء الصغيرة كي أُعلِّلَ نقص المال كل شهرٍ، كأن أدعي سرقتَه، أو ضياعَه، أو خَصمًا ما بسبب تأخُّرٍ في المواعيد. إنه الموت. هل أفِرُّ منه؟ هل منه فَرار؟ ليكن الموت إذا جاء. لعله مخرج منطقي من حياةٍ غير منطقية.

***

ترتدي (حياة) عدساتها الطبية وتواصل القراءة فيما كتبه أحمد:

هناك في أعماق الليل حينما أوغل في دروب الظلام، أراني كما لم يرني أحدٌ من قبل. أراني على حقيقتي، أتوغَّلُ داخل عقلي بسلاسة، وكذرة أسبح في الشرايين والمفاصل والمشاعر. أرى بوضوح دون نظارتي الطبية. وأسمع أدق الأصوات بغير استعانةٍ بسماعة الأذن. والليلة حينما

أسرجتُ حواسي وبدأتُ رحلتي اليومية، لَمَحْتُه هناك، ظلٌّ من نورٍ، يصل الأرض بالأُفُقِ، أو بالسماء، فلا شيء يهمُّ مع المفاجأة بأن أجد أحدًا في تلك البُقعة، عدَّلتُ منظاري فوق أنفي كي أستطلع ملامحَه، مَدَّ يده. وأمسك بالنظارة وألقاها بعيدًا. أترى في الظلمة، وتحتاج عدسات لتستطلع النور؟ عجيبٌ أمرُك! وما كان النور إلا حبَّك يا أحلى نساء الأرض!

زفرت "حياة" فذابت جُدران الاحتياجات والصُّروف. صارت قلبًا ينبض بمحبة الغائب يرجوهُ إعلانًا بعودةٍ وشيكةٍ كي ترتاح على صدره. كل هذا يا أحمد، يا أخي لا تكتبه. قُلْهُ لي مرةً، اعْزِفْهُ على مسامعي، دَنِدِنْ على أوتارِ مشاعري، أحبُّك يا رجلي.

(٤)

مدَّ حسن يده للشيخ كي ينزل معه. أشار الشيخ أن انزلْ وأنا في إثرك. قفز حسن إلى الماء بحيوية الثلاثين. وتفحص ظلام عربة المترو كي يرى الشيخ. أحسَّ بحركة خلفه وجده. كيف نزل؟ متى نزل؟ لم يعد يشغل باله بمثل هذه الأمور. اعتادها. قبضَ على يد الشيخ حتى لا يفلت منه في الضجيج. وهمس بخفوت:

– أتعلم يا شيخنا، أقصى ما حلمتُ به أن أكون معك. كم تمنيتُ أن أُحشر معك! لكن أن يهبنا الله موتًا واحدًا ووقتًا واحدًا، أن أكون بصحبتِك وقت نهاية المضمار. فهذا أكثر مما تمنيتُ وأعظم من كل أحلامي، هنا أتيقن أن الله يحبُّني. وأنك عني راضٍ.

لم ينتظر (حسن) ردًّا، فالشيخ المَهيب الوقور، وضيء الوجه، كثير الصمت. قليل الحديث. يلوذ بمسبحتِه. ويتمتم بآيات الذكر وأورادِه أناء الليل وأطراف النهار. تشبَّث (حسن) بيد الشيخ الهادئ. وخاضا في الماء معًا. يعتريه هدوءٌ استمدَّه من هدوء الشيخ وطمأنينته.

– بص يا سيدي.

التفت حسن بالكلية للشيخ:

– لستُ هادئ البال مُطمئنًا كما توحي تلك الصورة المرسومة على وجهي. بي جزعٌ مثل ما بالناس. وتعتريني طُمأنينةٌ من حين إلى حينٍ. أتراوح بين الحالين. ويبقى وجهي واحدًا. فلا شيخ ولا يحزنون. ما أنا إلا رجلٌ تركت حياتي لله يُسيِّرُها كيف يشاء. ورضيتُ بمشيئتِه وابتسمتُ في وجه خلقه. وعلمتُ أن الكلام شهوةٌ فاعتصمت بالصمتِ لا قليلًا. وألقيتُ أذني للناس أسمع منهم ولا أقاطعهم. ومنحتهم قلبي يحمل معهم همومهم. وسخَّرتُ نفسي لخدمتهم ما وسعني الجهد والمال. وكففت نفسي عن طلب أي شيء من خلق الله. وعلمتُ أن جلَّ مشكلات البشر في أمرين: المال والنساء، فما نازعت أحدًا في مالٍ قط، وإن كان لي حقٌّ تركتُه لله. وما مددتُ نظري أبدًا لامرأة إلا زوجتي.

(٥)

– شوفي يا زينب هذا النفق كما يسمونه، ليس أكثر من ترعة كبيرة مملوءة بالفراغ. الآن أصبحت مملوءة بالماء. هل تخافين من الترع يا زينب؟ أكيد لأ. عليكِ نور يا زينب. توكلي على الله وسيري في الماء حتى نهاية الترعة. وهناك ستجدين النجاة.

(٦)

قفز بائع المناديل من عربة المترو إلى أرض النفق المغطاة بنحو شبرٍ من الماء. ما إن لامست قدماه الأرض حتى انطلق مثل سهمٍ نحو عربة السيدات صارخا:

- بطة. بطة.

جاءه صوتها واضحا من بعدٍ:

- "حمكشة،" أنا هنا ومعي "ضبش".

تلاقوا معًا، واقتربت الرؤوس. والتهب الهمس بينهم:

- أين الولد؟ عندما نُصب المولد. قلتُ نفسي أولى بالنجاة. اللعنة وماذا نفعل مع المعلم "الونش".

قالها "حمكشة بضيق.

- سنتصرف على أية حال، فالونش لا يهمه الولد في شيء، كل ما يهتم به هو النقود ليس إلا.

ردَّ ضبش في ثقة.

تألقت عينا "حمكشة" الضيقتان وهو يتلفت يمينًا ويسارًا ويهمس:

- أمامنا فرصة ذهبية وسط هذه الحشود التي تركض لا تلوي على شيء، فنُقلِّبُهم ونسلبُهم ما معهم. ابدؤوا بالحُلي فإن لم تجدوا فبالأموال النقدية. احتكاكنا بهم في هذا الفزع لن يلتفت إليه أحدٌ. سيعتبرونه احتكاكَ فَرارٍ من النفق. رحلة هروب من الموت. علينا أن نفترق كلٌّ منا وسط مجموعة، ونلتقي بعد نصف ساعة في محطة مترو السادات العلوية-خط المرج- فلن تصعد المياه إليها.

- أنا تبت يا حمكشة.

قالها ضبش في رجاء.

- كلنا تبنا يا "ضبش"، لكن الفرصة لا تأتي إلا مرة واحدة. والله غفور رحيم.

- أنا تبت يا حمكشة.

كررها في إصرار.

- كأنك اعتدت على الحاجة والسؤال وقضاء عشائك نوم.

- أنا تبت يا حمكشة.

قالها في حسمٍ واضح.

- انتهز الفرصة الآن وتب-فيما بعد- كما تشاء. لكن انتهزها كي تحيي إنسانًا في مجتمع قاسٍ لا يعترف إلا بالمال. أو فافعل ما شئت. ثم إننا جميعًا تبنا مثلك، ولكن هل تاب الفقر وكفَّ عن مُلاحقتِنا ومُطاردتِنا؟

والتفت إلى بطة:

- وأنتَ؟

- معك يا أخي. ليرحمنا الربُّ من الضَّنكِ وبيع المناديل والوجوه الخشبية التي نلقاها يوميًّا.

(٧)

يجلس "لؤي" ذو الثمانية عشر ربيعًا فوق رصيف محطة مترو السادات، مع مجموعة من الشباب الذين فروُّا سريعًا دون مساعدة أحد. ويكتب على صفحاته في مواقع التواصل الاجتماعي ومدونته:

"مررت اليوم بتجربة، ربما لم يمرّ بها رجلٌ في الثمانين من عمرِه. والله نحن جيل محظوظ، نرى ما لا يراه غيرُنا ونعيشُ في وقتٍ قصيرٍ ما لم يعشْهُ المُعمِّرون. المهم من غير فلسفة فارغة: رأيتُ الموت اليوم، كنتُ متوجهًا للجامعة بالمترو وبين محطتي السادات والأوبرا، ما بين فرعي النيل تهدم جزء من جدار النفق وتسربت المياه إلينا، طبعًا لا أريد أن أخبركم عن الرعب الذي عاشه الناسُ جراء مواجهة الموت، بعضهم ظنَّ الموت صعقًا بكهرباء المترو بعد تسرُّب الماء. لكن الكهرباء انقطعت. لستُ أدري أقامت هيئةُ المترو بقطعِها. أم انقطعت بلُطفٍ من الله. رأيت أناسًا يساعدون أناسًا، وآخرون يدهسون الناس كي يفرُّوا. وكان أقل الناس رعبًا نحن الشباب. أنقذتنا سرعتنُا وشبابُنا فنجونا في أقل من عشر دقائق. أو لعلنا نظنُّ النجاة. أترككم مع الصور واحكموا أنتم".

"هذه بعض الصور لما يحدث الآن بين محطتي مترو الأوبرا والسادات... ".

"قطعتُ المسافة بين مكان توقف المترو وبين محطة السادات في سبع دقائق، أتظنُّونه رقمًا قياسيًّا في هذا الظرف".

صورة من هنا وصورة من هناك انتشر الخبر على صفحات التواصل الاجتماعي. علمت مصرُ من أقصاها لأدناها خبر تسرُّب ماء النيل نحو نفق المترو في المسافة الفاصلة بين محطتي الأوبرا والسادات. وعلم الجميع أن في تلك المسافة أربعة قطارات. دق هاتف وزير النقل ورئيس الهيئة العامة للأنفاق:

- ألو.

- معكما مكتب الرئيس. وانتفض الرجلان.

جاءهما صوت الرئيس على الهاتف:

- ما الذي يحدث؟

- تسرب بسيط في المياه سيادتك وخاطبنا وزير الكهرباء فقطعها عن الأنفاق. ونبحث التصرف المناسب في ضوء توجهات سيادتكم.

- يا ترى كم يستغرق هذا البحث؟ أيستغرق وقتًا يجعلنا نجمع جثث الغرقى؟ أهذا وقت البحث والتباحث؟ ما التصرف الذي قمتما به لإنقاذ الناس؟

– ليس لدينا المعدات اللازمة سعادتك. نحتاج للقوات المسلحة بما لها من إمكانات!

– القوات المسلحة؟!

وأُغلِقَت سماعة الهاتف في وجهيهما.

هكذا تركتُها، تجري بأمر الله في بلاد الله، لم أمسْكها، ولم أُلقْها، وتركتُ الأمر كله لصاحبِ الأمر، روَّضتُ النفس على الرضا حتى استساغته فأصبح سبعًا، والوجه على الابتسامة حتى صارت بيعتَه، والقلبُ على الحبِّ فصار علامةً عليه.

٤٥: ٧ ص

(١)

الموت يلهو قليلًا مع الفارِّين بحيواتهم، يضربهم ضرباتٍ غير قاتلة، لكنها مُنهِكة. تمهيدًا لانقضاضة أخيرة فاصلة في وقتٍ معلوم. انفتح رتق كبير في جدار النفق. تدفَّق الماءُ هادرًا كوحشٍ هائج، جرفَ الجميعَ في طريقِه، حَمَلَ المسئول الكبير صادمًا إيَّاه بالجدار الإسمنتي في ضربةٍ مُوجعةٍ، فتأوَّهَ الرجلُ وخذلته الرغبة في النجاة. انكسرت ساقه، بكت عضلاتُه من ضعفٍ وإرهاقٍ وألمٍ، قرَّر في لحظة أن يستسلم. لم يستعن بمواهبه الكبيرة في التسلُّق والتزلُّف وتحويل دفة الحوادث لصالحه.

أيْقَنَ بالهلاك. وأن الموت كائنٌ لا تُجدي معه مواهبُه شيئًا، لا يقبل الرشاوى، ولا الوسائط، ولا المُحاباة، ينفذ وظيفته في الوقت المحدد بلا مماطلة وبلا مقابل.

فتحَ المسئولُ عينيه في صعوبةٍ بالغة. ندت عنه حركة خافتة بصعوبةٍ تشي بأنه في عِداد الأحياء حتى اللحظة الراهنة. كأن الجدار المقابل تحوَّل إلى شاشة عرضٍ ضخمة. يرى نفسه فوقها مذ كان طفلًا. منحته

الطبيعة جسدًا مُتناسِقًا، ووجهًا وسيمًا وابتسامةً ساحرة، لم تحرمه من مواهب كلامية خطيرة، ونغمة صوت عذبة مؤثرة. اكتشفها المحيطون به فكانوا يخبرونه بها، يطلبون إليه الحديثَ ويستزيدون، عرفها منهم فنمَّاها في نفسه.. فكانت تلك المنح تأتيه بالحلوى، وبعض النقود أكثر من إخوته.

***

بعد تخليهم عن المسئول الكبير، ومحاولاتهم النجاة بأنفسهم، إيمانًا منهم أن حياتهم أثمن من ضياعها حفاظًا على المسئول، وأنه لن يُعوِّض ذويهم قدر تضحياتهم من أجله، وإذا قُدِّرت لهم النجاةُ فوظائفهم مضمونةٌ، وما أكثر السادة الذين سيخدمونهم فيما بعده.

انطلقوا وسط الفارين، يدفعون هذا، ويضربون ذلك اعتقادًا منهم أن نجاتهم أولى، وأن حياتهم أجدر بالحفاظ عليها، وصرخَ أيمن الشاهد – وهو منهم – فيهم:

– رفقًا بالناس. إذا كانت وظيفتنا حماية المسئول من الأخطار التى يمكن أن تواجهه، فإن الأخطار إذا واجهته مع جمع من الناس فوظيفتُنا الأساسية هى حِماية الناس؛ لهذا نأخذ مرتباتنا.

– كفَّ عن الفلسفة يا أيمن.

صاح حسين بهذا متعصبًا.

– هذا ما أقسمنا عليه.

- ما زلت صغيرًا يا حضرة الرائد، المسئول وأي مسئول سيُضحي بك أو بي لو وجد في ذلك اقترابًا من كرسي أكبر، وربما يضحي بلا سببٍ تقرُّبًا لأحدٍ أو خدمةً لآخر. أتظنُّ والحال كذلك أننا سنضحي بأنفسنا من أجل حمايته؟

- تلك وظيفتى. واخترتُها عن رضًا وقناعة.
- غدًا تعرف أو تندم. الزمن كفيلٌ بذلك.
- ليكن.

وخفَّفَ من وَقْعِ سُرعة خُطواتِه مُبيِّتًا نيةً بينه وبين نفسه أن يكون آخر مَنْ يغادر النفق، لن يترك وراءه أحدًا، فإما أن ينجو الجميع، وإما الموت، وهو يسعى في تأمين الناس ومساعدتهم على النجاة، إن لم يكن برًّا بقسمه الوظيفي، فليكن إنسانًا يساعد الآخرين طمعًا في كرم رب العباد.

(٢)

طوال طريق النجاة يحرص حامد على الحديث إلى سلوى، شدًّا من أزرها، ومحاولةً لبث الطمأنينة في قلبها:

- كيف أفيكِ حقَّكِ؟ كيف أصفُ لكِ حبي؟ الكلمات مسخ شائهٌ يتوارى خجلًا أمام أسوارك، أمام جمالك، والحروف بلا قلوبٍ تنبضُ، فأنَّى لها الشعور بما في قلبي؟ كم تمنيتُ حروفًا تتنزل من ضوء الشمس أو من جنات عدنٍ أو من اللوح المحفوظ كي أُعبِّرَ بها عني وعنكِ، لأصف بها ما أرى في وجهك، وما أشعر في القرب منكِ، وما يعتريني حينما نفترق. الحب وحيٌّ بلا كلمات. وحبكِ يا سلوى معجزة لديها القدرة على إحيائي وقتلي. سعادتي وشقائي، لكن المعجزة لم تهبني ما يليق بك من كلمات. هل أتجاوز لو قلتُ أحبكِ وسكتُ بعدها كي أتبتَّلَ في محرابِ هذا الحبِّ؟ فكل ما قد يُقالُ بعدها تقريب وشرح وتبرير سينال قُدسيةَ الشعور، وروعة الإحساس، وعمق المعنى المستقر كأيقونة في فؤادي.

تسمع سلوى وتسكن الكلماتُ قلبَها، تمنعُها دموعُها من الردِّ، فتجيب دموعها الغزيرة، المتوارية مع الماء المطارد للحبيبين، ترتعدُ، فلا تدري آرتعادةُ السعادة والهوى أم ارتعادة الوجل من موت تراه وشيكًا؟

- مالك يا حبيبة قلبي؟

- أشعر بالبرد والخوف وأرى الراحلين يحومون حولي من بعيد.

انقبض قلبي وكدتُ أن أبكي أو ألقيها من فوق كتفي وأنجو وحدي، لم يتجاوز ذلك الشعور السخيف ثانيةً واحدة، تجاوزها قلبي سريعًا:

- كلنا يشعر بالبرد، فنحن نخوض في الماء والجو شتاء، أما الخوف فلعله هو بوابة الراحلين كي يأتوا إلينا. لا تخافي وثِقي بي كي تُغلقي تلك البوابة وتطمئني.

(٣)

هذا الركن في غرفة نومي، المنحصر بين الدولاب والنافذة المُطلَّة على المنور، أشعر فيه بأنفاس ساخنة، وطيف لعوب يسكنه. يدوِّن في الليل رواية رعب لا مثيل لها. لا يتحدث. يلعب بالأغطية في ليالي الشتاء، يسحبها من فوقي ويلقيها أرضًا. ينبعث من الركن كغلالة رقيقة من دخان، وقرب الفجر يعود إليه.

عجيب أمره وأمري، حينما أضبط الراديو على إذاعة القرآن الكريم يزداد نشاطًا ويتجاوز حدود الأغطية، وحينما أُغيِّرُ المؤشر إلى إحدى إذاعات الأغاني يعود طفلًا يعبث بأشياء صغيرة، أستطيع التأقلم معها والنوم. يومًا ما قررتُ أن تملأ سورة البقرة جو غرفتي فوضعتها على فلاشة وتركتُها تصدح بآيات الله ليل نهار. زاد نشاطه معها بشكل غير عادي فبدأت غلالة الدخان تعترضني إذا أردت الخروج من الغرفة. وتلكزني بيدٍ حقيقة. بل كنتُ أحيانًا أجد علاماتٍ زرقاء فوق كتفي أو فوق ساقي.

حلمت في هذا اليوم المشهود بأني في كنيسة، ورأيت أحد القساوسة يحدثني وحقيقة لا أذكر بقية الحلم. لكن علق في ذاكرتي وجْهِ القس، وتفاصيل ملامحه. لم أهتم، كابوس آخر يعتريني. لكني مُصِرٌّ على البقاء في غرفتي ولن أغادر الشقة يا طيف مهما تفعل. في صباح يوم بعدها اشتريتُ الجريدة وطالعتُها على عجلٍ كعادتي. راعني فيها تحقيقٌ مَنشورٌ حول المسِّ والسحر وغيرها من تلك الأمور الغيبية، وفي وسط التحقيق صورتين لشيخٍ وقس. هنا توقفتُ طويلًا، فصورة القس في التحقيق هي لذات الوجه الذي رأيته منذ أيامٍ في الكابوس. وقعت الجريدة من يدي، ظننت بنفسي كل الظنون، أيقنتُ دون شكٍّ أني ولجتُ من عتبة الجنون نحو ساحته اللامتناهية. حيث تعربد أفكارٍ غير مألوفةٍ، وأطيافٌ شرسةٌ في خلاء النفس، تفعل بها ما تريد دون ضابطٍ من عقلٍ لم يحتمل وطأة الواقع، ففَرَّ من نوافذِه طليقًا بغير قيود.

- تفضل يا ولدي.

- ما هذا؟

- جريدتك وقعت منك. يبدو أنك مُنشغِلُ البال.

ناولني الجريدة، ترددتُ قبل أخذِها.

- يا ولدي ألا بذكر الله تطمئنُّ القلوب؟

رَدَدْتُ في آليةٍ محفوظةٍ:

- ونعم بالله.

تأمَّلني الشيخ ذو الأنوار بعينيه. اقتحمني. شعرت به يغوص في أعماقي، يكشف كل مكنونات نفسي، اجتاحتني طمأنينةٌ باهرةٌ، أنستني كل شيء إلا وجه الشيخ.

– لا تفزعنَّ من وجهٍ أتاك حُلمًا، ولا تهدأنَّ لوجه رأيته نظرًا، بل اطمئن بالله وافزع من معصيته.

ومضى الشيخ لكنه لم يفارقني بعدها قط. كان في قلبي، وفي عقلي، ترنُّ كلماته القليلة داخلي كأنها مشعل من نورٍ يهديني في ظلمات واقعي، وترشدني إلى بوابة العقل والطمأنينة وتبتعد بي عن بوابات الجنون. كنت أتشوَّقُ لدخول حجرتي بعدها. أنظر لذلك الركن وأناجي الطيف المشتعل. لست خائفًا منك، أنا بالله ولله ومع الله. تتجمع سحائب الدخان إيذانًا بخروج الطيف من الركن، ثم تتماهى كأن لم تكن أيامًا على هذا الحال. بعدها بدأ وجه الشيخ يملأ ذلك الركن. أنام نومًا قريرًا، هادئًا. أيام أخرى مطمئنة تسير فيَّ نفسي وأسيرُ فيها.

واستيقظتُ ذات مساء على أناشيد جميلة، وموسيقى ترفع الروح لسموات أُخر. تصدح في مكان ما، لكنها تملأ روحي، يا ترى من يُديرُ أُسطوانة أو مُسجِّلًا أو فلاشة في هذا الوقت من الليل وبهذا الصوت المرتفع؟ بحثت عن مصدر الصوت فلم أجد. نبهني أولادي إلى ذلك، بل تجاوز سيف ابني ذو السنوات الخمس، وأخبرني أنه وجد رجلًا يُخفي وجهه على باب حجرتي يهتزُّ مع الموسيقى. الأناشيد دينية. والطيف لا ديني. الأناشيد مطمئنة. الطيف مخيف. الأناشيد للجميع.

الطيف لي وحدي. الأناشيد لا تخيفني، الطيف يفعل. الأناشيد تخيف أطفالي، الطيف لا يفعل.

أزعجتني الأناشيد التي تأتي في بعض الليالي دون البعض. الصوت يزعجني ويوقظني في هدأة الليل. يا إلهي ما هذا؟ كيف أنجو؟ للجنون بوابات عدة. ما إن أخرج من واحدة إلا وأعود لأخرى.

في صبيحة تلك الليلة البعيدة –زمنا– القريبة روحًا، وجدتُ الشيخ في عربة المترو. لم أتردد لحظتَها، تقدَّمتُ منه وكأن بيننا عِشرةً طويلة ومعرفة وطيدة. ألقيتُ السلام وقصصتُ عليه القصص، كلما توغلتُ زاد وجهُه إشراقًا، وتسللت الطمأنينةُ إلى قلبي رويدًا رويدًا، حتى إذا انتهيتُ كانت المحطة التي ينزل فيها الرجل، تشبثتُ بجلبابه ناصع البياض، ابتسم تاليًا قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُون " صدق الله العظيم. ونزل وسبحت الروح في مداد النور.

تلك هي بداية معرفتي بالشيخ الذي أطلقت عليه بيني وبين نفسي "الشيخ عبد الخالق". ومن يومها حرصتُ على لقائه والحديث معه، وأحيانًا الذهاب معه حين يأذن والغياب من العمل. كلماته قليلة، لكنها حِكمة. واضحة الحروف لكنها ألغازٌ. يقول جملة قصيرة رشيقة، ويتركني، أفكُّ طلاسِمَها، أو يأتيني الزمان الطويل بتأويلها.

– حسن.

انطلق اسمي كبلورة مسحورة من فم الشيخ.

فهتف قلبي:

- لبيك يا مولانا.
- كيف تجد قلبك يا ولدي؟
- مُطمئنٌّ يا شيخي.
- يا ولدي يمتلئ قلبُك بالنور، بقدر تخلِّيه عن (الدنيا).
- قلبي مُمتلئٌ بالنور منذ عرفتك.

عندما تخطو في درب العشق...، فلا سبيل للالتفات للوراء. خطواتك إليه تمحو دروب الرجوع.. ما دمت معي فقلبي لا يعرف رجوعًا.

(٤)

البائس يعيش طويلًا، أو ينتحر. "صدقتَ يا جدي، قلتَها لي صغيرًا ولم أفهمها".

فهو يعيشُ طويلًا كي يتعذب أو يناضل ليجد لنفسه مكانًا فوق الأرض، بين الناس.

أو يضيف إلى بؤسه يأسًا، فيكتم أنفاس الحياة وينهيها بيديه. لكني أخشى الانتحار. نعم أتمنى الموت خلاصًا من عالم لا مكان لي فيه. الموتُ بلا انتحار غاية.

وربما تكون تلك اللحظة التي أعيشُها الآن لحظة حظي الوحيدة في الدنيا. ها هو الموت يسعى إليَّ في عربة المترو. والناس من حولي تفِرُّ وأنا واقف لا أتزحزح. بعضهم اعتبرني مجنونًا، ولعلهم على حقٍّ، فأحيانا أراني مجنونًا، وأحيانًا فيلسوفًا على حافة الجنون، وآخرون لم يلتفتوا إليَّ. والقليل منهم قرأ على وجهي آيات الرضا والعرفان للزاحف مع المياه لتخليصنا من الهموم والجوع والقهر.

آخر الفارين من العربة -رجلٌ ذو لحية- صرخ وهو يشير بسبابته نحوي:

- أنت هكذا تنتحر، وستلقى الله كافرًا.

وأين أفرُّ في نفقٍ أيها الأبله السمين! النفق تحت فرعي النيل. الموت إذا جاء لا يردُّه فَرار. ولا ينجو من قبضتِه حريصٌ على الحياة.

- ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة يا رجل. اقفز لعل الله يَهَبُ لك الحياة.

وقفز ذو اللحية وتركني أُصارِعُ أفكاري وأوازن بينها في لحظةٍ لا مكان فيها للصراع إلا مع الحياة والموت في آنٍ.

***

قلبت حياة الصفحة، مددت جسدها فوق السرير وواصلت القراءة:

" أصعد السلم في رشاقة وسرعة. لا أعاني شيئًا على غير العادة. خفيف بلا أثقال. سريع كمحبٍّ يسعى للقاء. يمتد الدرج أمامى مخترقًا كبد السماء. أراه بوضوح، بدون عدساتٍ طبية. أين هى بالمناسبة؟ لا يهمُّ، ما دمتُ أرى. لكنه أمرٌ عجيب. لا تتوقف كثيرًا أمام القوانين، إنما وُضِعَتْ ليخترقَها البعضُ. أواصل الصعود ركضًا. غضروفي لم يشتكِ، وهو كثير الشكوى. صدري لم يضق بي. جميلٌ إحساسى بالخِفَّة لو تدوم. ستدوم، أثق بذلك. هذه المرة الأمر مختلف. أصعد متجاوزًا بعض

السحابات الراكضة أمام سوط الريح. أتأمل لونها الأبيض وزغبها المتناثر. تتأمَّلُنى هى الأخرى، تتفحصنى. اسكتْ وهل للسحابات أعين. نعم هنا لها أعين. اقترب منها وسترى. أتابع نظراتها لتستقر عينى على ملابسى أجدها ثيابًا بيضًا. أعشق اللون الأبيض، أُجِلُّه. لكنى لا أرتديه، يتسخُ سريعًا، ولا يحتمل يومًا من أيامى الطويلة.

انتهى الدرج الشاهق إلى فراغ لا متناهٍ. أدور بعينى، لعلها تتشبث بأي شيء. لا شيء تقبض عليه عينى. رحابة لم أرها قط. اتساع هائل لا يحوطه نظر، ولا يحده أُفُقٌ. أدور حول نفسى فَزعًا. ما هذا؟ كم تمنيت الوسع والبراح! لم أكُ أدرك كم يكون ثقيلًا، مخيفًا! مما أخاف هنا؟ لا شيء حولي، لا بَشَرَ، لا جِنَّ، لا جمادات، لا هواء.

انتبهت فجأة فعلًا لا يوجد هواء. كيف أتنفس إذن؟ راوغتنى الإجابة هاربة في دهاليز غير مرئية. أيقنتُ أن المُسلمات والقوانين التى أعرفها ما عاد لها وجودٌ هنا. ولكن ما هنا؟ وأين هنا؟ نظرت نحو قدمى. وجدتُها تطأ الفراغ، لا أرض، لا موطأ لقدم. أأسير في الهواء؟ الويل. كأننى جننتُ، وهل تعقَّلتُ يومًا؟ لا سأجنُّ حتمًا.

- لن تُجنّ؟

صاحَبَ الصوتَ ربتٌ حانٍ على كتفى. استدرتُ سريعًا، الفراغ يلد بَشَرًا.

- من أنت؟

- جدك لأبيك.

- لكنى لم أرك لقد رحلت قبل ميلادي بنحو من عشرين عامًا.

- نعم، هذا صحيح.

- إذن لماذا جئتَ الآن؟ وكيف تعرفُنى وأنتَ لم ترنى؟

قهقه جدي بصوتٍ جميل يُحاكى الكمان والناي.

- بل رأيتك مذ وُلِدْتَ وتابعتُ نُموَّك، لعبتُ معك، وأهديتُ والدك "كلوبا" لينير لك الدار، وأهديته يوم نجاحك في الثانوية العامة، ويوم تخرجك، ويوم زواجك و و و... وكنتُ أشد أزرك يومَ رَحَلَ والدُك، ألا تذكر أني أتيتُك وقلتُ لك لا تحزن أنت في عينى؟

- كيف عدتَ؟ أيعودُ الراحلون؟

- إنهم لا يعودون يا ولدي.

وأمسك بيدي كى أسيرَ معه.

سرتُ معه مطمئنًا. فهو جدي الذي عشقته دون رؤية. فرّت دمعتان أحرقتا الوجه المتورد، وأسًى استولى على وجدان "حياة"، فاستعرضت في لحظة كل أيامها الحلوة مع حجاب.

- مالك يا رجل أتريد الهروب بالموت منى؟! أتتركنى أواجه الحياة وحدي؟!

(٥)

موقف فريد لا يوصف، ووضع خطير عشناه للمرة الأولى ولعلها الأخيرة في رحلة الحياة، إن قياس الحرص على الحياة عند البشر بوضعهم في مواجهة مباشرة مع الموت اختبار عسير جدًّا، ونتيجتُه في الغالِب واحدةٌ، الحرص على الحياة، ويصل الحرص على الحياة مَبْلغًا خطيرًا لدى البعض، إذ قد يضحون بحياة غيرهم بمنتهى البساطة واليسر إن وجدوا في ذلك نسبةً مهما تصغُرْ.

على الرغم من ارتفاع صوت حامد، ووصوله إلى الفارين، فإنهم بمجرد ملامسة أقدامهم للماء، وإحساسهم بسرعة جريانه وعنفه وارتفاعه، نسوا ما قيل، فاندفعوا غير آبهين بالضعفاء. كُلٌّ يبغي النجاة ولو كانت على حساب غيره. أمام الموت يتصدر الهلع النفوس، ويقودها الحرصُ على الحياة، قليل منا يُقدِّرون حياة الآخرين ويحرصون عليها حرصهم على حياتِهم. هرج ومرج وعنف، سَقَطَ البعضُ تحت الأقدام، والبعض من ضعفه قذفته المياه لتضرب به الجدران.

الظلام المُهيمن على النفق مع أضواء كشافات الهواتف المتأرجحة أضفى على الموت مَهابةً فوق مهابتِه، وزاد في قامة الخوف زيادة تحكمت في النفوس ووشت بها الصرخات والآهات هنا وهناك. وقطع حبل الصراخ، صرخة رفيعة متقطعة تُنبئُ عن طفلٍ نسيَهُ أهلُه، أو سقطوا فأجمَتْهُ الوحدةُ ودفعه الظلامُ والضجيجُ الباكي من حوله إلى الفزع. صرخة الطفل استوقفت ثلاثة نفر.. حامد وهو يحمل حبيبته. وزينب وهي تحمل سَبَتَها. وحجاب وهو يحاول اختيار مكالمتِه الأخيرة.

(٦)

حينما أطلق الطفل صرختَه لتشُقَّ جلال الخوف وجبروت لحظات الموت، وكأس النجاة المسكر، توقَّفت زينب على الفور وسَبَتُها الأثير فوق رأسِها. التفتت بكل ما فيها من عنفوان وقلبها يسبقها نحو البقعة التي يحتلها الطفل، الويل لأهله الذين تركوه بإرادتهم أو بغيرها. الويل لهم إن كانت النجاة قد غرَّتهم أو أعمتْهُم أو أنستهم قطعةً منهم، هم لا يستحقونه، يستحِقُّه مَنْ ينفق حياته عن طِيبِ خاطر ليحيا الطفلُ حياةً لائقةً به.

كأنك يا زينب جئت المحروسة لهذا الطفل وليس للمريض. ولعل للزيارة والواجب زمن مختلف ووقت قادم، فاللحظة لهذا الملاك الحائر وسط أمواج القدر.

وألقت بسبتها واندفعت تخوض الماء نحو الطفل كعروس بحر تَمْخُر عُباب الموج للفوز بغنيمتها.

يوصيني إذ دخلت الخلوة: سَلِّمْ وامض. لا تمكث فغيرُك يريد الدخول. انْهَلْ من النور ما شئتَ، واستمدَّ تُمدَّ. ولمَّا دخلتُ واستويت جالسًا عند قدميه، أنساني النور وصايا فارقت أذني، قبَّلتُ يديه وبقيتُ، عبثًا حاولَ الرجالُ الشداد إخراجي، فشلوا في زحزحتي من مكمن نهل الضياء، أشار إليهم الشيخُ أن دعوه.

- ما الذي تبتغي؟

يضع يديه على رأسي وأضعُ يدي على قلبي.

٧:٥٠ ص

(١)

طالت الصحبة بينهما، لا الشيخ باح باسمه، ولا حسن سألَ. سنوات يلتقيان. يصليان، أو يستمع حسن لبعض نصائح الشيخ أو حكمه. في النفق المغلق من جانب، والمرجو النجاة من جانبه الآخر، سأل حسن الشيخ:

- إن كان الفراق، فهل لي سؤالك عن اسمِك يا مولانا؟

- حَسُنت العشرة على طولها. واغترفت مما علمنى الله ما شاء لك، ولم يكن الاسم ذا بالٍ عندك، أتأتي اليوم وتسألُ؟! والإجابة لن تطيل العمر أو تفسر الموت.

- أو تدري؟

- السؤال السليم أن تسأل عن درب النجاة؟ درب النجاة في القلب السليم، في الاستماع إلى صوتك الداخلى، أن تسير حيث يشير، أن تسعى حثيثًا للقاء المحبوب، أن تكون لحظتُك تلك أسعد لحظاتك، أن تشعر بالنور القريب منك، أو لعله يسكن فيك، أو يسطع فوق رأسك، أو يملأ أرجاءك. يُخفي اللهُ لُطفَه في قَدَرِه. ما نعيشه الآن قد

يعتبره البعض نهاية مباغتة جاءت قبل أوانها. ولا نهاية أتت قبل أوانها قط. "إنا كل شيء خلقناه بقدر"، "فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون". ويراه آخرون خلاصًا من هموم وأوجاع تلاصق الطين ما سكنته الروح. والخواص يرونه منحة في ثوب محنة. يمحص بها الله عباده المحبين. يطهرهم ويزكيهم ويخلق لهم في محنهم مِننًا لا تُعدُّ ولا تُحصى. أيكون الموت خيرًا أم شرًّا؟ لا أحد يدري إلا بعد أن يموت. ولكن أن تكون محبًّا للحقِّ حقًّا فلتثقْ أن الله: لا يعذب المؤمن المحب بالنار. حاشاه أن يفعل. عذاب المؤمن-إن عصى- الحجب وليس الحرق. أنت معى وهذا يكفينى، سراجى أنت. يا ولدي إذا تعلقتَ ببشرٍ فثق أن خيبات الأمل والجراح ستلاحقك شئتَ أم أبيتَ.

- لا أتعلق ببشر. بل أتعلق بك شيخًا مُرشدًا.

فاضت عين الرجل:

- تلك هي المحنة. محنتك ومحنتي، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا.

وأنشد مترنِّمًا:

أتانـي حبيبـي منامًا بغيـرِ حجابٍ، جميلًا، رحيمًا، حـنونا.

رسولي، شفيعي، خلا من عيوبٍ فقاد مراكِـبَ روحـأي أمينـا

(٢)

لم أكن أصدق مَنْ يقولون إن مَنْ يموت تُعرض عليه حياته في لحظاتٍ، فكيف لهم معرفة ذلك؟ أحدثهم الميت؟ أم عاين أحدٌ الموقف ثم عاد لقَصِّه علينا؟ إن ورقة الشجر حين تسقط من فرعها لا تعود إليه ثانية لتبثه ما عانته من عذاباتٍ فوق تراب الأرض، وحين تدهسُها الأقدام وتذروها الرياح تصبح كأن لم تكن . لكني جربتُ حالةً شبيهةً بتلك. حينما انهمر الماءُ علينا من شُقوق في النفق ما بين فرعي النيل ونحن أسفله بعشرة أمتار. وطاردتنا المياهُ في النفق تحمل الموت بين أمواجها الهادرة. شعرت- والكل معي-أن الموت آتٍ بلا مواربة. كاشف الوجه، فاغرًا فاهُ، غير متخفٍ -على غير عادته- ساعتها لم تُعرض عليَّ حياتي، بل استعرضتُها في لَمْحِ البصر بكل أيامِها. الحلو والمر على حدٍّ سواء.

أراني طفلًا صغيرًا نحيفًا. يحمل حقيبة قماشية من ذات لون مريلته وأخطو فوق الأرض بساقين دقيقتين كمسمارين، ويهتز جذعي من رياح الخريف، فأكاد أسقط لولا محروس ابن عم سليمان جارنا. ذاك

الطفل القصير العفريت، لولاه لالتهمتني الرياح وأكلني الصِّبيةُ الشرسون في أولى صفوفي الدراسية. وأراني في أحد الأيام خارجًا من بيتنا في الصباح فتلاحِقُني كُلُّ كلاب الحارة. فأنطلقُ كريحٍ مُتخبِّطًا في كل جدار أقابِلُه حتى سقطتُ أرضًا وأيقنتُ بالموت بأنياب الكلاب ومَخالِبها. لكنها تجاوزتني إلى حقيبتي، ونبشت طعامي وأكلته بتلذُّذٍ دون أن تعيرني اهتمامًا. كانت المرة الأولى ولعلها الأخيرة التي أحمل فيها ساندويتشًا من كبد الدجاج، وكل طعامي كان الجبن القريش.

وألمحني شابًّا نحيفًا يرتدي قميصًا باهتًا وبنطالًا حائل اللون، وحذاء مَثقوبَ النَّعل، أقِفُ في حرم الجامعة ليس حولي إلا بعضُ من رفقة قديمة لولاهم لمكثتُ في الجامعة وحيدًا. وتقفز الصور في رأسي لأجدني في لباس الخدمة العسكرية، أحمل بندقيتي روسية الصنع وأركان كتيبتي يهتف فينا في الظلام الحالك:

- أيكم يُجيدُ حلَّ الكلمات المتقاطعة؟

فيهتف زميلي في الخدمة:

- لا يوجد سوى أحمد حجاب يا أفندم فهو المُجنَّد ذو المؤهل العالي الوحيد في الكتيبة.

ينصرف الرجل ويعود بعد قليل ومعه جندي زميل، يأمرني بتسليم سلاحي له والذهاب معه. نمكث في مبيته حد الفجر نحل الكلمات المتقاطعة.

- أستأذنك كي أنام ساعة قبل الطابور يا أفندم.

- طابور؟ ومَن الذي يجرؤ على إيقافك في الطابور. اذهب فنم كيف شئتَ.

لم أستطع الاستيقاظ فنمتُ. أيقظني (الصول) مجاهد. وذهب بي إلى السجن. وعلمت أن مَنْ أمر بحبسي ثلاثة أيام هو ذاته أركان الكتيبة.

ثم سأل عني فعلم أني في السجن فأمر بحبسي ثلاثة أيامٍ أخرى كوني هربت إلى السجن كيلا أشاركه حَلَّ الكلمات المتقاطعة في المساء التالي. وعلمتُ فيما بعد أنه اختبار نفسي-هكذا قيل لي- وأني نجحت فيه بامتيازٍ، وكان الامتياز المزعوم أني رضيت بالقرارات على غير منطقيتها تنفيذا لنصيحة والدي، لا شيء يقال إلا حاضر ونعم وتمام يا أفندم حتى يمر عام تجنيدك على خيرٍ يا أحمد.

تقفز المشاهد من النافذة بسرعة لتحل محلها بذات السرعة. حديقة عامة. وخروجي الأول مع حبيبتي. لم تكن كذلك في ذلك اليوم البعيد، لكنه اليوم الأول الذي رأيتها فيه كانت بصحبة أختها المخطوبة إلى صديقي "فريد" واصطحبني معه كي أشغلها عنهما، ما زال هذا اليوم تاجُ ذكرياتي، الكلمة الأولى والانطباع الأول، وانقطاع تجاوز ثلاث سنوات بعدها، حتى التقينا مصادفةً في رِواق الجامعة هي تدرس وأنا أُمهِّد لدراساتي العليا، سألتها:

- هل تحتاجين شيئًا؟

هزت رأسها نفيًا. وانصرفنا كلٌّ إلى سبيله. بيد أن بابًا في القلب قد انفتح، ونافذة في العقل قد أطلَّ منها طيفٌ ظَلَّ يرافقني اليوم كله. فقطعت محاضراتي وذهبتُ إليها. لماذا؟ لستُ أدري، لكن مجرد رؤيتها خلَّفت في النَّفْسِ راحةً، وفي القلب سعادةٍ، وفي العقل تَطلُّعًا إلى المزيد. وهكذا بدأتْ كلُّ الحكاية.

سِرْنَا على درب الهوى، ما شاء الهوى لنا. كنتُ أدفعها دفعًا لحضور محاضراتها وأنتظرها بالخارج، لقاؤنا لم يتجاوز مسافة الطريق من الجامعة حتى قرب منزلها. تقدَّمتُ إليها نحو عشر مرات. قاتلتُ الدنيا من أجلها، وقاتلتْ معي، تزوجنا، أنجبنا ولدين وابنتين.

علا صوت سريان الماء في نفق المترو. ارتفعت المياه وبدأت تتسلل داخل عربة المترو حيث أقف وحيدًا بعد فَرار الجميع. ما زلتُ أتأمَّلُ الأسماء في قائمة الهاتف وأتساءل: بمن أتصلُ؟

إن أغلى ما عندي في الكون امرأتان، أمي وزوجتي. من منهما أُحادِثُها في تلك اللحظة التي يسعى فيها الموت نحوي بخطى محسوسة ومسموعة؟ أمي لاعبة أكروبات ماهرة، نعم، وما زالت كذلك –على الرغم من تقدمها في السن– لم تفقد مهاراتها بعد. وعيتُ الدنيا وأبي– رحمه الله –يمنحها نحوًا من ثمانية وأربعين جنيهًا كل شهرٍ، هي كل راتبِه. تضعها تحت ورقة "الجرنال" في ضلفة الدولاب الوسطى. تجهز له ولنا الغداء. والشاي من بعده. يخلد الوالد للنوم كعادته. وتُهرعُ هي

إلى الضلفة الوسطى. تُخرج الجنيهات القليلة، تُجنب الالتزامات الشهرية، كالإيجار والمياه، والكهرباء، أسطوانة الغاز، مصروفاتنا الشهرية، ما اقترضته من خالتها... وما يتبقى تدير به أيام الشهر. أحيانًا تستقطع القليل من مصروفاتنا. تنزل السوق، تدوره كله للحصول على أرخص الأسعار. أو تشتري الخضار والفاكهة بـــ"الشروة". تحرص في زيارتها لجدي على أن تكون الزيارة-السبت الذي تعود به- عبارة عن الخبز والأرز. كي يساعد في توفير نفقات الطعام.

وبالرغم من كل مهاراتها الاقتصادية كانت تعاني في الأيام العشرة الأخيرة من كل شهر-خاصة أيام الدراسة- فكانت تبيع الزيت والسكر الخاص بالتموين لأقاربها كي نُكمِلَ شهرنا-وهذا يعني المزيد من التوفير في مثل هذه السلع في بيتنا. وأحيانًا كانت تبيع الدجاجات التي يرسلها لنا جدي من البلد. ورصد أبي تلك المعاناة التي تُكابِدُها وزيرة ماليته شهريًّا. فقرر العمل يومي إجازته-الخميس والجمعة- ليرفع عن كاهلها هذا العبء. ولأنها ماهرة اقتصاديا فقد اعتبرت الدخل الإضافي كأن لم يكن. وجنبته شهريا. فاشترت لنا بيتا في قريتنا. وبنته. وها هي ذي تعيش الآن فيه بصحبة أحد إخوتي وأبنائه وما زالت لاعبة أكروبات ماهرة جدًّا.

صرخة شقَّت خلاء الذكريات مقتحمة العقل في قسوة فانتبهتُ على الفور، هو طفل صغير لا شَكَّ، وحيدٌ بلا ريبٍ. تكتنفه الظلمةُ والموت، اقترب من الباب في تردٍ. لينظر الطفل الخائف. ربما خوفه

وصراخه من الظلام ولعل مَنْ معه يشدُّه بقوة نحو ظن النجاة. أخرجتُ عنقي من الباب ونظرتُ في اتجاه قدرتُ الصرخة آتية منه. لمحته، طفلًا ملائكيًّا أبيض الوجه. تُغطي المياه وجنتيه، أمياه هي أم دموع؟ ولماذا الطفل وحده؟ أين ذووه؟ وعلى هدى أضواء بعيدة. لمحتُ موجة عملاقة من الماء قادمة خلف الطفل. فليكن للموت يوم آخر، قفزت من المترو واندفعت نحو الولد الصغير. احتضنتُ الطفل، متسائلًا:

- ما اسمك؟

- "حودة".

رفعته على كتفى، ضممتُه إلى صدري، هو في مثل سن ابنى الصغير، محمد آخر العنقود. كأني أضمُّه هو وإخوته معه، ضمة أخيرة. قد تكون وداعًا، أو اعتذارًا بلا كلماتٍ عن كل الأيام والساعات التى قضيتُها بعيدًا عنهم. لم آسفْ يومًا على الوقت قدر أسفى عليه الآن، ليتنى خصصتُ لهم وقتًا! ليتنى استمتعتُ بمشاكساتهم. وتركتهم ينهلون من أُبوتي وحناني الجارف.

تخلصت دمعتان من أسر عينى. خطتا طريقهما فوق وجنتى. أخرجت هاتفه من جيبى. أتصل بزوجتى. جرس. ليكن صوتها آخر ما أسمع إن كان الرحيل قدري في اللحظات القادمة. ليكن حديثى اعتذارًا. وأنفاسي محبةً. واتصالي خير خاتمةٍ لحياة قدَّمتْ فيها زوجتي

كل شيء لي. ولم أكن لها كما أريد، خذلني الزمن، خانتني الظروف، لم أكن مُقاتِلًا بقدر ما كنت مُحبًّا شاعرًا فوق الأوراق.

- ألو.

ماذا أقول لها الآن؟ أأخبرها بالحقيقة وأشرح لها مأزق الحياة؟ أأبثُّها شوقي وحنيني على عَتبات الغياب؟ أأترك لها ذكرى جميلة؟ أم أسأل فقط عن أخبارها وأخبار الأولاد؟ ثم أُغلق الهاتف وأكتفي فقط بسماع نبرات صوتها في كلمات اعتيادية:

- بخير، الحمد لله، حاول ألا تتأخر.

لا وقت للموت الآن. فلتكن الحياة من أجل "حودة"، ومن أجل أحبابي، ليكن له وقت آخر في زمن آخر. وأغلقتُ هاتفي. ومضيتُ.

(٣)

تجمَّد حامد من لوعة الصيحة، وميَّزها على الفور هي لطفل. توقَّف عن الهرولة بغتةً فكاد ينقلب على وجهِه. لولا أن استند بقبضة يَدِه على الجدار المجاور. دار على عقبيه في بطءٍ يتناسَبُ مع حِمْلِه. أرسل بصره يفتِّشُ أرجاء النفق المظلم ذي الأضواء المتراقصة، توقفت عيناه على وجه شاحبٍ يظهر ويختفي. ورأى بقلبه دموعًا تسيل على خدي الطفل الواقف بلا حركة على مبعدة منه.

تكوَّن السؤال في لحظة. وانطلق في الأرجاء كقذيفة، ارتفع فوق رأسه، ما العمل؟ طفل مسكين فَقَدَ مَنْ معه أو نَسوه أو ضلَّ طريقَه، يجب العودة إليه وإنقاذه، هل يتمكن من حمل سلوى والطفل معًا؟ أيهما أولى بالنجاة؟ سلوى والقلب والوعد؟ أم نفس بريئة طاهرة؟ نفسٌ ما أساءت لأحد، ولا دنستها أمراضُ التكبُّر والحسد والنميمة، نفس لم ترتكب ذنبًا ولم تعشْ حياةً؟!

انجُ بنفسِك أولًا، انظر لنفسك مخرجًا، ثم عُدْ إليه، وهل بعد المخرج عودة. سلوى أولًا فهي الحياة، المستقبل، الحب والسعادة،

الوعد وذكريات الشباب، وللطفل ربٌّ يحميه. عقله مع نجاته وحدة فالحياة لا تأتي إلا مرة واحدة، الحب قد يأتي مرات كثيرة. قلبه مع سلوى فنجاتُه نجاتُها ولا نبض إلا بها. ضميره مع الطفل، نفسٌ وحيدة في عالم مظلم قاسٍ. ليكن ما قدَّر الله. ليكن الضميرُ أعلى صوتًا. وعاد مسرعا قَدْرَ جهده ليأخذ بيد الطفل، المسافة طويلة، والسائرون نحو النجاة يتدافعونه، وضميره يمنحه إرادة، إرادته تواصل المسير.

– حامد! لِمِ توقفتَ وغيَّرتَ اتجاهك، أهو الموت؟

– بل الحياة يا سلوى، طفل صغير خلفنا يطلب النجدة، لنذهب إليه ونأخذه معنا.

– يا لك من فتى نبيل! هكذا هو مَنْ أحبُّ. أنزلني هنا واذهب ثم عُدْ إليَّ سريعًا.

– سنذهب معًا ونعودُ معًا، ولن أتركك إلا تحت سماءٍ تُداعِبُ شمسُها جبينَك.

– أحبُّك يا حامد، ولو كان الموت فيكفيني أني بين يديك.

(٤)

شجرة كافور عفية. طعنت الأرض بجذورها وتشبثت بها. تمر بها الفصول تِباعًا، فلا تغير من شُموخها شيئًا. شامخة كنخلة، مستقيمة كمئذنة، تحفظ نفسها من هوج الخريف، وعنفوان الربيع، ولفح حرارة صيف الشهوات، تضمُّ ظِلَّها على مَنْ لجأ إليها، أيًّا مَنْ كان، ترتفع حَدَّ

السماء عن الأرض، عن الطين، تُسبِّحُ بحمد ساكن السماوات ورافعها . هكذا هى زينب وهى تمر مر السحاب نحو الطفل الباكى. لا تلتفت لعلو ماءٍ ولا للرسائل التى يحملها السير عكس تياراته، وعكس اتجاه الفارِّين مع ما يحمله ذلك من مصادماتٍ وصعوبةً في الحركة، وأحيانًا سقوطًا في الماء. في منتصف المسافة الفاصلة بينهما، اصطدمت بحامد حاملًا سلواه. وقعا جميعًا، ووصل (حجاب) للطفل. نهضت سريعًا، ومدت يدها تنتشل سلوى من الماء ونهض العاشق يُقيمُهما معًا.

- العشق واحة إيثار.

- العشق يا خالة ثمرة الحياة.

ألقت نظرة طويلة نحو أحمد حجاب، تزنه فيها بفطرتها. وتُقيِّمُه في حِفاظه على الطفل وحمايته. ومرت بخاطرها ذكرًى بعيدة، وعدة صور بالأبيض والأسود لـ"سعيد" العبيط ساكن قريتهم حين كان يطارد الأطفال أو يطاردونه إلا "عبد القادر" ذاك الطفل النحيف الضئيل، فكلما قابله سعيد في أي من حارات القرية كان يحمله متهللًا ويطوف به الأرجاء ويهتف في جذل:

- عبده... حلو، حبيبى... عبده.
- الحب من الله يا زينب.

هكذا كان يقول لها أبيها.

هزت رأسها رضًا. ومضت تبحث عن سَبَتِها الغارق.

(٥)

لا شيء كما يبدو. فالوجوه قد تبدي أشياء غير ما تُكنُّ القلوب. والكلمات قد تحمل طيبًا وتخبِّئ وراءها شرًّا يتوارى منه الشيطان، والصحراء الشاسعة تحمل في رحمها ماءً عذبًا زُلالًا. والبحر تكمن في أحشائه جبالًا عظامًا، فلكل شيء مَنظرٌ وجوهرٌ. وغالبًا ما ننظر بعيوننا فقط، فنرى ما يبدو وهو غير الحقيقة. الآن ننظر إلى ما نحن فيه ونتحدث عن الموت، ونفرُّ منه. نعم رأيناه بأعيننا في الماء المندفع نحونا في نفق ضيقٍ لا يزيد قطرُه عن ثمانية أمتار. نتهم الموت بمطاردتِنا واصطيادِنا جميعًا أو بعضًا منا. لكن الحياة أيضًا خلف الظاهر. فالحياةُ تنتقي مَنْ يستحقُّ التمتُّع بها، هكذا علمتني الحياة في كنف الباشا، علمتني أنها تنتقي مَنْ تشاء كما يفعل الموت. إذن نحن بين فكي رحى. الموت يطارد البعض والحياة تنتقي البعض فإذا تلاقت رغبتاهما يموت هذا ويحيا هذا. لقد تعرضَّ الموت لي مرات عديدة، كمن لي خلف مقود سيارة، وتحت موج بحر، وبقلب رصاصة طائشة، لكن الحياة اجتبتني فنجوت، حكمة لا نفهمها بالعقول وحدها، وإنما نلمس حدودها بقلوب تفقه الكامن وراء الظواهر.

خلع "عباس" قميصه وبنطاله، فهما يعوقانه عن الحركة وسط الماء. لم يعتدهما رغم ارتدائه لهما قرابة الثلاثين عامًا، لكنه ما إن ينهي عمله يُهرع إلى الجلباب والصديري. تحتهما كانت فانلة وسروال من قماش (التيل) يمتدُّ لما بعد الركبتين بقليل. وعلى الرغم من كونه في العقد السادس من العمر فقد انحنى وحمل المسئول الكبير على كتفه كأنه يحمل حزمة من البرسيم. نعم أفادته الفلاحة وحرفة الزراعة والقبض على الفأس وضرب الأرض به أورثاه قوة لا يُستهان بها وأعصابًا من حديد.

شيطان صغير انتحى ركنًا بعيدًا، يرسل إشارته لإعادة توجيه خطوط سير عباس. ها قد حملته، اضرب به الأرض إذن. مرة أو عشر مرات. ربما تخفف المياه من وقع الضربات، فلتضربه في الجدار يكون أوقع وأسرع. لا أحد يراك، لا أحد سيعلم بما حدث. كم فعل بك! كم أهانك! كم عاقبك وحرمك من جنيهات قليلة كانت تكفي لسداد الدين وتمنعك من الاقتراض وإراقة ماء وجهك مع من يستحق ومن لا يستحق! اقضِ عليه وخذ ما في جيبه من نقودٍ. أفٍّ لك. الفرصة مواتية. حتى لو لم يكن معه نقودٍ فمعه "فيزا" ولديك رقمها السري، خُذْها واصرف ما بها وزوج ابنتك. هيا يا رجل.

تسمَّرَ عباس في مكانه يستمع لتلك الإشارات-غير ذات الصوت- المترددة في داخله بأعتى مكبرات الصوت. نعم أهانني وحرمني من كثير من حقوقي، لكني لا أعامله الآن كونه مسئولًا، أو

ربَّ عملٍ. بل أعامله كونه رجلًا ضعيفًا جريحًا في محنة ويحتاج للمساعدة، وأنا قادر عليها، ليس الفقراء مَنْ لا يملكون المال، وإنما الفقراء مَنْ يخونون، وأنا لستُ خائنًا.

عندما يَقِفُ الموتُ على رأسي، سأهمسُ له : ما أنا إلا مُحِبٌّ، أحببتُ قَدْرَ قلبي.

٧:٥٥ ص

(١)

شدَّد حجاب ذراعه حول الطفل في حنانٍ بالغٍ. ومضى بحذرٍ في النفق الممتلئ بالماء الهائج. غريب أمر هذه الدنيا! فيها كل شيء، والدان أو أحدهما يُلقيان طفلهما عرض الموت. وآخران يتمنيان طفلًا. ما أعجب الحكمة حين لا نفهمه! وحين نجهد العقل في محاولة سبر أغوارها يرتدُّ إلينا خاوي الوفاض كئيبًا بلا فهم وبلا وصول. أحيانًا تُضيء كمصباح، كشهاب عارض. تفترشُ مساحةً من العقل فيفهم بغير تفكير، ويرى بغير عينٍ، ويسمع حتى وإن كان أصمَّ. وهذه الأحيان القليلة لا تأتي بطلبٍ بل تأتي من تلقاء نفسِها. وتختفي بإرادتها.

آه، الآن علمت لماذا أقرأ هذه الجريدة العتيقة وأصرُّ على شرائها. دائمًا ما أبحث عن الأمان في وظيفةٍ ثابتة. تدرُّ دخلًا ثابتًا، حتى وإن قلَّ، ومعاشًا يقيني السؤال في شيخوختي. أضحك بلا سببٍ عند هذه النقطة فتتطلع لي العيون الخائفة بحذر وتساؤل، لا أعيرها التفاتا. على الرغم من كوني كنت أرفض فكرة الوظيفة في أعقاب تخرجي لنفوري من التحكمات العبثية في مصائر البشر بيد مديريهم. إلا أني بعد الزواج

والإنجاب ندمتُ على طيش الصبا، ودائمًا ما كنتُ أسترجعُ قول والدتي

- "يا حمادة إن فاتك الأميري يا ولدي فتمرغ في ترابه".

وكنتُ أُمازِحُها قائلًا:

- في زمن الخصخصة لا يوجد أميري يا أم حمادة.

- كلامك النحوي هذا لا أفهمه يا ولدي.

- دعك منه يا أمي. وأخرجي لنا الجبن القديم والفطير.

- بتهرب؟

- وغلاوتك أبدًا، كل ما في الأمر أني جائع أشتهي الفطير. آكل منه فأسكر من جمال صنعتك، وأنام كما كنتُ أفعل على حِجْرِك.

***

تقلب حياة صفحات الكشكول وتقرأ:

لا تبحث عن الحب، فسيأتيك كقدر لا فكاك منه. هو يعرف طريقه جيدًا، لا يرتبط بجمال ما، أو درجة معينة من المال والوجاهة الاجتماعية، هو بلا مواصفات معينة، يدخلك دون إذن ويقتحِمُك بغير إنذارٍ، فإذا أتى فلا مَفَرَّ منه ولا شفاء.

- أداءٌ هو يا حكيم؟

- يحمل القدرين معًا، قد يكون عضالا لا برء منه، وقد يصبح نعيما لا آخر له. إن أصابك فستعلم أي القدرين قدرك، ولأي الفريقين تنتمي. إن كان داءً فما أسهل الهجر، وما أمتع الفراق والغيبة. يا ولدي لو أصبح داءً فلا شفاء منه، إلا بالموت. فالهجر والافتراق يسيرين، لكن البرء مستحيل. سيسلخ منك لياليك في تذكار ودموع، ويقضُّ نهارك في أحلام يقظةٍ تستنزِفُك حتى تأتي عليك. كلما مررتَ من مكانٍ، قلتَ: هنا اللقاء الأول، وإذا رأيتَ من يشبه المحبوب أدمتَ النظر، وأدمنتَ الفكر، وإذا سمعتَ كلمةً قالها يومًا التفت رغمًا عنك.. تبحث عنها في غيرها من النساء، ويلاحِقُك الماضي في مستقبلك.. فجرح القلب دائم، والعين أدمنت تقاطيع الوجه الهارب فلا ترى سواه أو من يشبهه.

وانفتح باب الحجرة، فجفلت وتطلعت بعينين متسائلتين لنور ابنتها الكبرى:

- أمى، أبي في مترو الأنفاق بين محطتى السادات والأوبرا، والأنفاق تتهدم تحت النيل.

استمسكت "حياة" بالأمل:

- أبوك يكره المترو ولا يركبه، ثم إن المترو لا يذهب به إلى العمل فالطريق مختلف.

وضعت نور يدها على صدرها:

– أعلم يا حياة، أعلم. لكن الخبر على الفيس بوك، منتشر، ومعه بعض الصور، لمحت في واحدة منهن أبي يحمل طفلًا صغيرًا.

انتبهت حواسُّ الأنثى، مُكرِّرةً في دهشة:

– طفلًا صغيرًا.

– نعم يا حياة، لعله طفل تائه، ولكن المؤكد أنَّ أبي ينقذه.

– آه، نعم، من المؤكد أنه ينقذه، هكذا هو حجاب.

– اتصلي بعمك عادل فعمله قريبٌ، حتى أرتدي ملابسي وأذهبَ إلى هناك.

(٢)

حملها فوق كتفه وانطلق وسط هدير المياه. كم تمنى أن يحملها عروسًا له! لا أن يحملها شهيدة لقاء لم يتم، وقبلة ناقصة خطفاها بنشوةٍ مبتورةٍ خشيةَ أعين المتلصصين.

- سلوى، ابقي معي.

هوت دموعه غزيرة. اختلطت مع مياه النفق. يشعر بنبضها واهنًا ضعيفًا مُتباطئًا، وجسدها ساكن يتأرجح مع هرولته. كأن الحياة تفرُّ منه.

- حبيبتي، قاومي. لا تمضي وتتركيني مع لوعة تقتلني ببطء. وعدتُك أن ننجو معًا. وعدتُك أن نكون معًا. هززتِ رأسَك في إيماءة شجعتني على النضال من أجلِك. أهنا تتركيني واهبةَ الحياة؟ أهنا ترحلين ونحن في بداية الدَّرْبِ؟ أهكذا وعد الحبيب للحبيب؟

الماء شرسٌ. يقيد ساقيه، يمنعهما من الحركة، والموجات المتلاحقة تكاد تقلبه على وجهه، بيد أن إرادة إنقاذها أقوى من الماء، أقوى من الحياة ذاتها.

– أتذكرين يا سلوى أول لقاء معي، أول كلمة قلتها. وأول كلمة سمعتها منكِ. لا بأس ربما لا تقوين على الكلام. لكني أثق أن قلبك يسمعني. وأن روحك تناضل من أجلي وأن شراييناك ستبتسم كما يبتسم ثغرُك حين أُذكِّرُك بما حدث في لقائنا الأول. أتعلمين؟ لن يكون هذا لقاءنا الأخير. بل سنتذكره ونبتسم معًا. هذا اللقاء في مواجهة الموت والخطر سيكون بداية لحياة طويلة معًا. به ستعلمين أني أحبُّك حقًّا. سيتبدد به كل شكٍّ قد زارك في منامِك. أو في أحلام يقظتِك أو بثه أحدُ الحساد في أذنيكِ.

(٣)

افترق الثلاثة: بطة انطلقت نحو تجمُّع نسويٍّ، حشرت نفسها بينهنَّ، يدها الخبيرة تعرف طريقها إلى السلاسل المعلقة في صدور النساء، أو حقائبهن. حمكشة عفريت من الجن، طاف بالجيوب مسًّا ولمسًا، نظفها تمامًا ممَّا عَلِقَ بها من أموال وحافظات. يفرزها فيما بعد. ضبش سار برأس مثل بالون منتفخ. تملؤه الأسئلة. أيسرق اليوم ويتوب ثانية غدًا؟ وهل يضمن أن يوجد هو في الغد؟ امتلأ رأسُه بصور لأكوام من الحافظات الجلدية والحلى النسائية الصغيرة: سلاسل، خواتم... حسبة صغيرة ويوم واحد يتكفل بحياة طويلة سعيدة. قرار واحد في لحظة واحدة يغير مصير أسرة كاملة، ينقلهم من حالٍ إلى حال. يسير في بطءٍ كأنه يتنزه ويستمتع بنسيم الربيع في يوم قائظ. تفلت الخطوة من قدمه. تتعثر في هوة صغيرة. ينكفئ على وجهه، أو يكاد. يرتطم ب "حسن". يسرع حسن بالقبض على وسطه كى لا يجرفه معه.

- شكرًا لك.
- لا شكر على واجب.

سقطت بعض الأنوار المتحركة على وجه ضبش. رأى حسن يتجول بعينيه داخله. قُشعريرة باردة طافت روحه، حاول الاستمساك ببقايا إرادة –ولت هاربة– لإخفاء بعض أسراره. أبعد أفكاره عن تاريخه الأسود كله. استحضر بعض ذكرياته الغابرة أيام طفولته حين كان يرتاد المسجد مع والده، يقرأ بعض السور القصيرة، يحضر مقرأة الفجر.

مرت الأنوار لحظة ثانية بوجه "حسن"، لمح ضبش شبح ابتسامة ماكرة على وجهه. هذا الرجل ليس عاديًّا، ربما يكون ضابطًا قديمًا ممن وقعتُ في أيديهم ويعرفنى غير أنه مُتنكِّرٌ لسبب أو لآخر. أو لعله ولِيٌّ صالح؟

– سر طيبًا، نعم الدرب دربك.

قالها حسن وولى وجهه شطر المحطة إيذانًا بالمسير.

شعر ضبش بالحيرة، والدهشة من قول حسن المباغت له، قول لم يتوقعه لكنه يكشف بسهولة ويسر أنه دلف إلى داخله، تجول في أفكاره، قرأها كلها في لحظة واحدة. نور طفق يبدد ظلماته، ويطارد ليل أفكاره، إذن الرجل وَلِيٌّ، يا لحظى الحسن وإشارة ربي الطيبة لى! هى التوبة وكمال القبول.

(٤)

فتىً وسيمٌ، أبيض، يخطو أول خطواتِه في الجامعة، يريد أن يقفز فوق أسوار الفقر، يتخطاها، يدخل عالم السلطة والمال. ذكيٌّ، ذو مواهِبَ شتى. لمحها. البنتُ عيناها نافذتا ضوءٍ، صوتها مزمار هارب من داود تهتزُّ من أوتاره القلوب والأرواح. شفتاها حبتا فاكهة نزلتا توًّا من جنة الخلد آية للناظرين، ومطمعًا للجوعى المشتاقين، قَدُّها فينوسى إغريقى سوته آلهةُ الفراعنة، وسقته من ماء بُحيرةٍ مقدسة، سأل عنها، هى بُغيتى وهدفي.

البنتُ توقف الأرض عن الدوران. تتلصص النجوم عليها، صدرها فتنة، ووجهها سحر، همسُها عِطْرٌ. حديثُها سُكر، صوتها قِنينةُ خمر مُعتَّقة، تكاد ثيابها تحترق غيرةً عليها، رُموشها آلةُ قتل، عيناها طلقتا مِدفع، قلبُها صخرٌ، لم تمل قط. مهرة أصيلة تستطيع لا ريب القفز به نحو عالم الأحلام بقفزة واحدة. خطط ودبر حتى اقترب. سحرها بحلو حديثه. وتاريخ كفاح مصطنع. أحبته. تخرجا. البنتُ التحقت بمكتب والدها الهندسي الكبير. هو التحق بالخدمة في القوات المسلحة،

لم يقطع شعرة معاوية بينه وبين والدها. مارسَ اتصالاته الهاتفية كل فترة ليطمئنَّ عليه ويسأل عن أحواله، دون أن يشير إلى أية طلبات أو منافع.

واصل اتصالاته المعسولة الرومانسية بها، رسم أحلامه معها نجماتٍ تزين جِيدَ السماء، لونٌ خطَّ نضاله في الحياة من أجلها بألوان البحر والورد. أنهى خدمته، وجد مكتبه بجوار مكتب والدها مديرًا للمكتب الهندسي الكبير، أخلصَ في العمل، وصلَ الليل بالنهار، يسبق السعاة في الحضور، يُتابعُ العمل في مشروعات المكتب حتى قُبيلَ صباح اليوم التالي.

تزوجا، أيقن المهندس الكبير أن الله رزقه بابن طيب ومجتهد، ترك مكتبه بالكامل له، احتفظ فقط بحقِّ التوقيع على العقود الكبيرة، وما قبلها كان للمهندس الشاب. صار الرجل الكبير وزيرًا، اختار زوج ابنته مديرًا لمكتبه في الوزارة، حمل الشاب العبء عنه. في السياسة لا لوجود لثوابت، أطاحت أزمة خبز بالوزارة كلها. كُلف المهندس الكبير بتشكيل الوزارة. اختار رجلنا خلفًا له في وزارته. ها هو وزير في الخامسة والثلاثين من العمر. أحلامه تكاد تكتمل. طموحه بلا حدٍّ. واصل العمل كحياة وحيدة لا يحيد عنها. مستخدمًا جميع مهاراته في التقرُّب من الكبار. في النهوض بأعمالهم نيابةً عنه. في إقصاء من يراه مثله.

يركب المترو في يوم ليستطلع أخبار الناس. يقوم أمنه الخاص بحجز عربة كاملة له. يجتمع فيها مع رجاله كأنهم ركاب المترو. يتابع الناس على الرصيف. يسمع شكاواهم، يحفظها ليعيد صياغتها ويرفعها لرئيسه. يتحرك المترو، مع البعض من رجاله كاميرا. وملحق بكتيبته عددٌ من الصحفيين، يجري بعض الحوارات مع رجاله المتنكرين كى تنشر الصحف هذا اللقاءات. يتوقف المترو بغتةً، تنطفئ الأنوار...

- توقَّفْ قليلًا يا عباس.
- أهناك شيء سيدي.
- لا استرح قليلا. وأنا سأجري مكالمةً تليفونية.

(٥)

أيقنتْ بعد لحظةٍ عَبَثَ المُحاولة. فالسَّبَتُ غَرقَ. ولن تجده، تتحسَّس صدرَها، هنا تخبئ هاتفها المُهدَى إليها من أبنائها. لكن لا، لا حاجة لها به الآن، فالاتصال قد يقلق الأولاد. لو كان غندور حيًّا. آه يا غندور لكنتُ كلمتُك الآن، وحدك كنت ستعرف ما العمل، وحدك كنتُ ستأتي. ووحدك كنتُ ستخرج زينب مما هي فيه.

غندورٌ هو. ليس في القرية مثله. غندورٌ اسما ومعنًى. وسيمٌ، طويلٌ، نحيفٌ، يزيده منظاره فوق أنفه مهابة، مثقفٌ، نال بكالوريوس الطب. مارسه في قريته، يعالج فقراءها، يُخفِّفُ أوجاعهم. يُلبِّي طلباتهم أناء الليل وأطراف النهار. يزرع بيديه ستة قراريط ورثها عن والده. بنى لنفسه منزلًا داخل حدودهم. شقة علوية عُشًّا للزوجية. والدور الأرضي لاستقبال المرضى، بيته بسيطٌ كروحه، أنيقٌ كحديثه، نظيفٌ كقلبه.

يخطبُ الكلُّ وُدَّه، يبتغي الجميع مصاهرته، وهو عازف عن ذاك، مؤمن أن النصيب إذا أتى فلا مراوغة فيه.

يعتاد الخروج بُعيد عصر كل يوم. يسير بين أشجار البرتقال، يناجيها، يتنسم عطرها، يكتب بعض أشعاره الطفولية، يبتسم في وجه النسيم، يُداعِبُ أوراقَ الشجر بيمينه. ويهمس في أذن الثمر بصوته الشَّجيِّ، يمسح غُبار الأرض عن بعض الثمار الناضجة، يغنى بين الأشجار همسًا، تأخذه المعاني الحُلوة، فيرتفع صوتُه بالغناء في الخلاء. تميل الأشجار طربًا.

البنتُ ذات الضفيرة الذهبية، الهاربة من أسر الطرحة، تمرُّ. رشيقة القَدِّ والروح. أمواج وجهها حياة. صفاء عينيها لوحة تُغري. ثمرتاها شهيتان. شفتاها توت ملون.

البنت، تقاطيعها منحوتة من عسل، فالعين من نور الشمس خُلقت، والوجه من اللبن لُوِّنَ، والأنف ممتد كما تمرة من المدينة، والشفة دقيقة حينًا، وممتلئةٌ حينًا، تسيل لعاب الناظرين، والغمازتان تضحكان... فيسقط العشاق على جانبي النهر صرعى.

البنتُ لا طويلة ولا قصيرة، مستقيمة القوام مشدودته كوتر قوس يزمع إطلاق سهمه نحو الطامعين، أعلاها تزهر رمانتان فَوَّاحتان فتزيدان من سحرها، ويلتصق بها تَلَّان صغيران كأنهما الميزان في دقته وروعته فيحفظان عليها مشيتها ويقيمان العود شهيًّا.

البنت، فتنتها تُعْجِز، يَقْصُرُ القلم عنها وصفًا، فيرسمها خيالًا. والعين إزاء نورها، تُسْدلُ الجفونَ خشية دفقات الضياء المتتابعة. البنت خضراء العينين كما الزروع المترامية حولها. تخطو فتتمايل هامات النخيل

طربًا ونشوةً. بعض الفلاحين يدركها بعينيه، تتعلقان بها ولا تفارقانها، والبعض ممن يوجدون في الحقول وينحنون لملامسة الزروع وريها يدركها من عطرها الأخاذ، يدهمه صوت داخلي أن الفتنة عادت، أن الفتنة تمرَّ من جديد. فيثمل ويهيم في عالم بلا ألوان، حركات متوترة سريعة، ثم لا شيء بعد.

على جانبي الطريق تنتصب أشجار الكافور واقفة. الخطوة سِحْرٌ، والنَّظرةُ فِتنةٌ، والمنظر يُوحي ببحور عين ضلت طريق الجنة وساحت في الأرض. تتمهل البنت في مشيتها وترتجُّ في خُطوتِها، فتبرز أزهارها وورودها، سيفًا يقطع رقابًا، ويدمي قلوبًا، والأرض تتلصص علَّها ترى منها ما لم يُر حتى الآن.

سقط قلب غندور في هوة لم يعرفها قط. تشبثت عيناه بالبنت. فلما اختفت عنهما تعلقتا بظلِّها. هو النصيب حين يسعى بين حدائق قريتنا. يصطاد اللاهين. يوقع في حباله المناوئين لسلطانه. في المساء كان يطلب يدها. حين سألها أبوها:

– غندور يطلب يدك يا زينب، ما قولك؟

وردتا ربيع حمراوان طافتا بوجنتيها، عيناها الواسعتان طافتا بوجوه حبيبة محيطة بها تسألها الخلاص من حِصار الأب.

– تعرفي يا بنتي لو أنا امرأة ما ترددتُ لحظةً في الزواج به. لكني لستُ كذلك.

حاصرها الصمت. وانتظارٌ مُلحٌّ من أبيها. قطعت والدتُها جِدار الصمت بزغرودة شقَّت طريقًا للفرحة في دارهم. تزوجا. خمسُ سنواتٍ مرَّت يا زينب. وثلاثة أطفال وهبنا الله إيَّاهم. أية نعمة تلك؟! وأي شكر لله يليق به ويكفى نِعَمَه! أمسك يدها بحنان جارف. اعترتها رعدة لا تعرف لها سببًا.

– أشعر أن الله كافأني بكل عمل خالص لوجهه بكِ. ومنَّ عليَّ فوق المكافأة بمننه فكان أحمد ورقية ومحمود. عِشتُ سنواتى الخمس معكِ كأنى ما عِشتُ قبلك. أحبكِ يا زينبتى. أحبكِ كنبوءة قديمة طافت أحلامى. أغلقت عليها أبوابى. وأغلقتُ جفونى فلم أرَ نساءَ سواكِ. لا في قرًى جُبْتُها. ولا في جامعة ارتدْتُها. أتعلمين ما كنتُ أومن بالحُبِّ. حتى رأيتكِ. ما كنتُ أعرف النشوة حتى تزوجتُك. وبالجملة لم أكن أعلم ما الحياة، حتى بذرتِ بذورها في بيتى.

– أشعر بألم في صدري لست أدري له سببًا.

– يا ليتنى كنتُ أنا يا نور عينى!

وَضَعَ سبَّابته على شفتيها:

– بل أنا فداؤكِ. أتعرفين لم أسألك يومًا: هل تحبيننى؟ ربما خشيتُ الإجابة. ربما آثرتُ أن أعيش على تخيُّلاتٍ وأفكار تمرُّ بى ليلًا دون أن أراها نهارًا.

– الحب دون ما أشعرُ به نحوك يا غندور. أحببتُك قبل أن تراني. أحببتُك وأنا أسمع عنك من فتيات القرية، ومن نسائها وشيوخها.

علت وجهها ابتسامة خجلى.

- تمنيتُ أن أمرض فيأتي أهلى بي إليك فأراكِ. وحين جئتَ دارنا لتطلبنى شعرتُ أيامًا طويلة أني أحلم. أتوهَّمُ. كنتُ أصفعُ نفسى. أو أخبط رأسى في جِدار الدار كى أتأكَّد من يَقظتى. ولم أتأكد حتى الآن. أنت أكبر من كل أحلامى وأروع من كل قصص جدتي حول الشاطر حسن. أحبك يا غندور حبًّا لو قُسِّم على العالمين لفاض وكفى. أحبُّك ماء يروي أرضنا الطيبة. لا حياة لنا بغيره ولا وجود. أتعرفُ يا أبا أحمد، أنت حبيبى، روحى، أبي، أخى، أنت كل الذكور الطيبة في حياتي، أنت ليلى ونهاري، جمالي في عينيك لا مثيل له. أنت من أشعرتنى بأنوثتى. بسحري. قبلك لم أكن شيئًا. كنتُ كغيري. فلما تزوجتنى صنعتنى. أنا مِلْكُكَ وصنيعتُك وأنفاسُك تسري في جسدٍ من طين فأحالْتَهُ لروح عاشقة.

- أشعر بالبرد.

ضمَّته إلى صدرِها، جاهدت لرسم ابتسامة في صوتها:

- مالك يا رجل؟ قل إنك تحتاج إلى حِضن.

- أحتاج إليه منكِ، أريدُه كى يكون آخر عهدي بالدنيا.

• كفى الله الشر، أأنت مريضٌ حقًّا يا غندور؟ ارتَحْ قليلًا، سأخرج لُأحضرَ لك طبيبًا.

تشبَّث بها:

- لا تخرجى لا وقت ليضيع. أودُّ الاستمتاع بوجودك حتى آخر نفس.

- تقلصت عضلات وجهه. فانهمرت الدموع من عينيها.

- كتبت الدار للكِ والأرض. فلا تبيعى الأولاد يا زينب. كونى لهم كما كنتُ للكِ.

- لا أريدُ دارًا ولا أرضًا. أريدُك أنتَ. أريدُ حياتَك كى أحيا.

تهاوت كَفَّه أرضًا، أطلقت زينب صرخة واحدة وانهارت بجواره. رحمك الله يا غندور. رحمك الله يا أبا فلذات أكبادي، ها هو أحمد على وشكِ أن يكون طبيبًا. ومحمود في الثانوية العامة، ويرغب في كلية الطب وأظنُّه سيلتحق بها، أما رقية يا حبيبى فهى عروس في الرابعة عشرة، ولن أزوجها كما طلبت إلا بعد تمام تعليمها. نَمْ قريرَ العين حتى ألقاكَ.

تنساب آياتُ المحبة وحروفُها من ذاك القلب، فتفيضُ عبر ضِفافِه.

تروي الجميع بلا استثناء، وتُهرول في مَجراها نحو النور.

قالتْ: آلله معنا حين نلتقي؟

قلتُ: اللهُ مع الصادقين المحبين أينما يكونوا.

٨:٠٠ ص

(١)

سرحتُ قليلًا في ليلة أمس، رأيتُني نائم على سرير أبيض، وحولي زروعٌ خضراء ممتدة، وورودٌ لا لون له يُداعِبُ أنفي، استيقظتُ على ملمسها، مددتُ البصر فرأيتُ صفوفًا من الأشجار تحيط بي على مبعدة من الجهات الأربع. شامخة، مورقة، زاهية. وخلف الركن الشمالي رأيت غبارًا كثيفًا، يلتهم هامات الشجر. يفترس الجذوع في سرعةٍ حتى أتى عليها في لمح البصر.

دهمني خوف من هذا الغبار الأسود الذي لم أرَ له مثيلًا من قبل، وهو يطوي المسافات طيًّا للوصول للمهد، يا ترى، ما مصيري؟ لن أكون أقوى من الأشجار الضخمة، سيبتلعني الغُبارُ، ويستمرُّ في سيره نحو الجنوب ليقضي على الأخضر واليابس.

ولأنه الفناء في كل الأحوال وأيًّا ما كان القرار، تذكرتُ والدي وهو يقول لي:

- إذا أتى الموت فلتمتْ شامخًا.

وقفت فوق السرير، فردتُ ذراعيَّ عن آخرهما، وخاطبت الغبار الأسود في شجاعة غير منطقية:

– لن تنال مني ما زال في العمر بقية، ما زال في الحياة أمل، امضِ في وجه غير هذا.

ولشدَّ ما كانت دهشتي حين وجدتُ الأشجار عادت كما كانت، والغبار يتلاشى سريعًا ليختفي بغتةً كما ظهر. والورد أضحى أحمر جميلًا. أحمل "حودة" على كتفي. أرفع تليفوني بعيدًا عن الماء. لو كانت أم "حودة" حية أو كانت معه لكان فرحًا بالرغم من أجنحة الموت الخافقة حولنا. كان ليشعر بالأمان في وجودها. فالأم هي كل شيء. تذكرت حيرتي فيمن أحادثه تليفونيًّا، لا حيرة ألبتة، الحيرة تخلقها ضغوط الحياة وتمكنها من فطرتنا، الفطرة هي الأم، فلأطلب أمي. هكذا يبدو أني حسمت أمري، هي تستحقُّ أن أُكلِّمَها، وأنا أستحقُّ أن أجد مَنْ يحبني حقًّا كي يحادثني في تلك اللحظات الأخيرة.

– أمى.

– أحمد كيف حالك يا ولدي؟

اختنقت الكلمات في حلقى، وارتعدت شفتاي، واعترتنى الحيرة مُجَدَّدًا. لكن أمى تستطيع التوغل داخلى دومًا، وتستخرج بعين أمومتها ما تخفيه كلماتى، وما أغلق عليه أبواب قلبى، علمتنى طيلة خمسة عقود أنها تستطيع ذلك دون جهد يذكر.

– مالك يا حبيبى؟ أأنت متضايق من أمر ما؟ هل تحتاج نقودًا؟ هل أنت مريض؟

- دعواتك يا أمى.
- مالك يا ولدي؟ لا تشغل قلبى عليك.
- لست أدري يا أمى، الموت يُلاحِقُنا في شراسةٍ، ويطلبنا في غير هوادة. أسير الموت في نفق مظلم. أحمل على عاتقى طفلًا تائهًا صغيرًا، الماء تسرب إلى نفق المترو، هذا هو الحال والموت طال رقبتى لم يعد بين وبينه إلا مقدار رأس وأسقط بين براثنه.
- ليكن ما قدَّر الله يا ولدي. لكنك لن تموت فما زلتُ بحاجةٍ إليك.
- حودة أين أمك أو أبوك؟
- أمى بطة كانت معى تبيع المناديل وتبكى.

لا يبدو على الطفل أنه ابن بائعة مناديل، آيات النعمة بادية على وجهه رغم ملابسه الرَّثة.

- هل هى أمك؟
- أذكرُ تيتة، ولكن لا أعرف لِمَ لَمْ تعدْ تلعب معى؟! ولِمَ لَمْ أعُدْ أرها؟!

لاذ حجاب بالصمت والتفكير، في غالب الأمر ليس الولد حودة بل له اسم آخر وهو في الأرجح ضل طريق بيتِه فوقع في يد أناس لم ترحم طفولتَه، وربما اختطفوه مِنْ ذويه.

- ألا تذكر لنفسك اسمًا آخر غير حودة؟!
- تيتة كانت تنادينى: تيمو، تمورة، تامر، لا أذْكُرُ.
- هو ذاك يا بني هو ذاك، اسمك تامر.

(٢)

اندفع الماء هادرًا، جارفًا في طريقه البشر، كما النيل قبل أن تروضه السدود والقناطر. تشبث الفارُّون بحيواتهم ببعض القضبان الممتدة على جدران النفق كيما لا يجرفهم الماء في طريقه المحتوم. تندفع بطة في قفزاتٍ مَحسوبةٍ نحو النساء، وبأيدٍ خبيرة مُدرَّبةٍ تسلبهم قطع الحُلى الصغيرة. وفي إحدى قفزاتها لمحت زينب. أيقنت أن هذه الفلاحة تحمل ما يستحقُّ المُحاولة. غالبًا تضعه في صدرها كعادة الفلاحات. تركت القضيب، وتركت جسدها لتيار الماء، فاصطدمت بزينب وتشبَّثت بإحدى يديها بالحديد الممتد كرقم نجاة في النفق، وبالأخرى راحت تقطع جلباب زينب بمشرطٍ حادٍّ بالقُرب من صدرها، قبضت زينب على يدِها، لم تَشْعُرْ بها، غير أن صوتًا داخليًّا نمته حياةُ الحقولِ أنبأها بالخطر.

تواجهت المرأتان: لِصَّةٌ مُحترفةٌ أمام نَمِرَةٍ متحفزة للدفاع عن نفسها، لم تروضها حياة المُدن، ولا أضعفتها حياةُ الدَّعَةِ والانتظار، طافت لمعة شرسة بعينيها العسليتين. أشهرت بطة "مشرطها الحادَّ" في وجه زينب. تواثبتا.

- آه يا ابنة الكلب. أتسرقيننى؟

- بل أبتغى روحك الآن.

أصابتها في ذراعها بجرح عميق ما كان ليوقف الرغبة في الحياة. خلعت طرحتها السوداء وأمسكتها مُطوِّقةً عُنق بطة بها. تشجعت النسوة لما رأينها فهجمن على بطة. شعرن بأنهن ضحايا لهذه المرأة اللِّصة، منحتهن زينب أملًا في المقاوم، ورغبةً في الانتقام.

غطست بطة في الماء. جميعهن يترقبن صعود رأسها، لكن العفريتة اختفت، ربما هربت، ربما ماتت. لا أحد منهن يدري، لفت زينب طرحتها حول ذراعها المجروحة. تحسست صدرها، وجدت اللفة المخبأة كما هى. تنفست في هدوء وراحة. لا أحد يسلب زينب مالها، لا أحد يأخذ من زينب إلا ما تُريدُ. صوت رنين تليفون يملأ ساحاتها الساكنة بعد صراع دام. تُخرج لفَّتها، منديلًا في داخله كيس بلاستيكى يحتوي على تليفون. دهست الزر الأخضر.

ألو.

كيف حالك أمى.

بخير يا دكتور أحمد.

أوصلت للعم أبا سليمان.

لا يا ولدي.

- أسمع حولك صخبًا وصُراخًا.

- أي نعم يا ولدي، أنا تحت الأرض في القطار، الماء حولنا، والموت يطاردنا.

- أمى.

قاطعته في حسم:

- ترك غندور امرأة فلم يشعر أطفالها بنقص. والآن تترك زينب رجلين وفتاة. كن لإخوتك ما كنتُ لك.

- أمى.

قاطعته ثانية:

- لا تقلق يا بنى سأنجو. ما هى إلا ترعة، وزينب اعتادت الترع والزراعة. زينب قوية لا تخشى المواجهات.

ومع موجة جديدة من الماء سقط تليفونها غريقًا. فنادى الدكتور أحمد أخوه وأخته.

- أمنا في مترو الأنفاق، ويبدو أن الأنفاق تهدَّمت.

- الويل لقد رأيت بعض الصور على صفحات التواصل الاجتماعى. القطارات في المسافة بين محطتى الأوبرا والسادات.

- لا وقت نضيعه هيا بنا إلى القاهرة لنكون بجوارها.

بكت رقية. احتضنها محمود قائلًا:

- لا تبكي، فزينب كما قالت، ستنجو.

(٣)

ملأت كلمات حسن وجدان "ضبش"، شَعُرَ بالنور يغمر ظُلماتِه، مضى مُتشبثًا بالجدران. غير متأثر كثيرًا كما الناس حوله. منحته حياة الليل، والقفز إلى الشُّرفات والتعلُّق بمواسير الصرف الصحى، ومطاردة رجال الشرطة، ومعاركه مع زملائه من اللصوص، قدرة على التوازن ومساحة كبيرة من المناورة، فاتسق الطريق قليلًا له. وخفَّت مقاومة الماء مع نشوته بالتوبة المقبولة، فحاول استثمارها تكفيرًا لذنوب ومعاصى كثيرة ارتكبها طوال اثنين وأربعين عامًا أنفق جُلَّها في السرقة والبلطجة ومعارك دموية لا حصر لها تركت كثيرًا من علاماتها على جسدِه، لكن روحه كانت تواقة لتغيير هذا المصير والإفلات منه.

مضى يساعد رجلًا وَقَعَ، أو امرأة تكاد تغرق. عيناه تجوبان النفق بحثًا عن رفيقيه. يا ترى ماذا يفعلان الآن؟ حمكشة تقريبًا في سنه أو يكبره بعامين، رأس مخطط وقلب ميت، لا يعيبه إلا جسد ضعيف لا يقوى على المواجهات المباشرة، لذا كان ضبش هو تمام حمكشة. صنوه، وصديقه، معًا شكلا رجلًا شِبْهَ أسطوريٍّ في مجال السرقات. أما بطة

فابنة لص كبير عجوز كان يبيع المسروقات لهما ويصرفها لقاء نسبةٍ، والغريب أنه كان أمينًا، لا يسرق لصًّا أبدًا، ولا ينصب عليه، يعطى كلًّا منهم حقَّه غير منقوص. عرفاها في شرخ صباهما، وكانت طفلة تسرح بالفُل، فلما اشتدَّ عودها كانت معهما وأحبت حمكشة. لكن الرجل كان بصباصًا ذا عين فارغة. لا يأتيها إلا إذا خلت لياليه الحمراء أو خلا جيبه. يعلم يقينا ببراعتهما، ولا شك أنهما في الدقائق القليلة الماضية قد كونا ثروة طائلة من جيوب الموظفين والطلبة.

وضعَ نُصْبَ عينيه أن يتابع حسن عن كثب. هذا الرجل يجب ألا يغيب عنه. إذا كتب الله له النجاة سيكون خادمه، ما أجمل أن تكون حياتُك في رحاب رجل صالح! بين جدرانٍ من الرضا والسلامة. أثق أن هذا الرجل سينجو. فما أشبه الليلة بالبارحة! كأننا في مواجهة طوفان نوح، ينجو المؤمنون، ويموت مَنْ لا صلة لهم بالسماء. يموت "حمكشة" و"بطة"، وأنا بين بين. فإن كانت توبتى مقبولةً سأنجو، لعلَّ الرجلَ الشيخ رأى ذلك. نعم هو الطوفان وأنا من الناجين، لأكن على مَقربةٍ من الشيخ. لأكن على صلةٍ بالمؤمنين.

اصطدمَ به رجلٌ يحملُ فتاةً فوقعا جميعًا، غاصوا في الماء، مَدَّ للرجل يد المساعدة. أنهضه وفتاتَه، ألقى بصره نحو حسن، رآه مُشتبكا مع رجل، هرولَ نحوهما بقدر مقاومة الماء، تبين له أن الرجل "حمكشة" لعله أراد سرقة حسن. حسن يصرخ:

– أتسرقنى؟ ما كان لك ستأخذه. وما كان لي لن تصل إليه، وكان أمر الله نافذًا.

مُغرَّر بك يا ولدي، تُب فما زال في العمر مُتَّسع.

تركه حسن رغمًا عنه. واتخذ مسافة حينما أشهر حمكشة مطواة في وجهه، مع بقاء وجهه مطمئنًّا ووقفته واثقة. قفز حمكشة قفزة مرنة فكان قاب قوسين أو أقرب من حسن، رفع يده بيد أنها لم تصل إلى مُبتغاها، أوقفتها يد "ضبش" قبل وصولها إلى حسن.

– ضبش؟

– أرأيت الرجل؟

قالها "ضبش" بحزمٍ وهزَّ الآخر رأسه أن نعم.

– لا تقربه ثانية، وأطلق يده.

فانطلقا جميعًا.

(٤)

صباح الخير يا أستاذ.

- اسمعني جيدًا ولا تقاطعني، فلا وقت لديَّ. الآن وليس بعد دقيقة. مزّقْ وصيتي التي لديك، وبع جميع الشركات والأراضي والعقارات الموجودة في مصر وحوّل النقود إلى حسابات ابنتي في الخارج. نعم ابنتي فقط ولا أحد غيرهما. لا زوجة ولا إخوة ولا يحزنون. خذ نسبتك المعتادة وزيادة ١٪ في المئة لا يهم. المهم التنفيذ الآن. لا أريد لأحد من أسرتي أن يشارك ابنتي في شيء.

- تمام.

- وأنت يا عباس: اذهب إلى مكتبي، افتح الدرج العلوي الأيسر ستجد ملفًّا ذا لون أزرق، مغلقًا، لا تفتحه، أحرقْهُ بعيدًا عن المكتب. وستجد ظرفًا به عشرة آلاف دولار، خذه لك، فأنتَ تستحقُّه.

- لا أريد شيئا معاليك.

- وحضرتك إن شاء الله ستنير مكتبك اليوم.

- لن يحدث يا عباس، وافعل ما أمرتُك به. عِدني وأعلمُ أنك صادق الوعد، عِدني.

- أعدُك يا باشا.

وانحنى ليحمل الرجل.

- لا تفعل. دعني فأنا على وشك الموت.

- لن أدعك.

وحمله ومضى. ثقل الحمل وارتفع الماء حتى رقبة "عباس". يحمل المسئول على كتفه ويمضي حيث يشاء الله. إن كانت النجاة فهي ما يبتغي. وإن كان الموت فلا مَفرَّ من قضاء الله.

تأخَّرَ كثيرًا عن الرَّكب، لم يكن بالقرب منه سوى الرائد أيمن، يمسك بامرأة عجوز لا تقوى على السير، يحملُها حينًا. ويُجرُّها حينًا. يصرخ في المتأخرين:

- هانت.. خطوات قليلة ونصل محطة السادات. هناك النجاة.

مَسَّ أيمن عنق المسئول الكبير، لم يجد نبضًا:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون.

- يا عباس.

- نعم سيادتك.

– مات الرجل.

– لا إله إلا الله.

– دعه وانجُ، فعلتَ ما عليك وزيادة.

– لن أتركه. سأحملُه حتى المحطة. لعله في غيبوبة سكر وتُكتب له النجاة.

– مات الرجل.

– وإن مات. لن أدعه، قد أكلنا عيشًا ومِلْحًا. وسأكرمه وأسلمه لأهله.

– أصيل يا عباس، ليت الناس كلهم مثلك.

– يا ليت الناس مثلك أنت يا باشا، فأنت رجل – بحقٍّ – ذو ضمير.

– لله درك يا ابن آدم! منذ أقل من ساعة كنتَ ملء السمع والبصر وحولك رجالك يمنعون عنك الذباب وحَرَّ الشمس. وهأنتذا وليس حولك إلا أنا، ساعيك وليس سواي على الرغم مما فعلته معى وبي فإن أبي ربَّانا على مراعاة الله في أعمالنا، وليس الناس. هأنا أحملك ميتًا وأأبى تركك. لعلى أحملك لأجد من يحملنى فيما بعد. مالِ أنفسنا لا تسير في خطٍّ واحدٍ أبدًا. تتعرج وتتلوى مثل ثعبان. ها هى تراودني أن أترك الرجل. ففى تركه نجاةٌ. وبأي حال سيجدون جُثَّته. تهمس في أذني وتصرخ:

– اتركه. أنت تقتل نفسك هكذا. تشبث بعنادٍ بحمله.

يا لهذا الصوت اللعين! يواصل في إصرارٍ:

– ماذا تستفيد من حمله ميتًا؟ ماذا يستفيد هو من موتك؟ أكلك حيًّا. فلا تجعل نفسك طعامًا للرَّدى من أجله ميتًا.

اللعنةُ عليك يا نفس! ما أفعل من أجل فائدة. بل أحمله من أجل يقين تعلمته. كما تُدين تُدانُ. سأظلُّ حاملًا إيَّاهُ.

(٥)

طال الصمت بسلوى، وقلبها يخفق ببطء شديد. بينما حامد قلبه ينتفض بين ضلوعه بعنف. واصل حامد حديثه للمحبوبة الغائبة عن الوعى، هكذا كان يرى في الأفلام الأجنبية مواصلة الحديث تجعل الغائب عن الوعى أو الساقط في الغيبوبة يواصل الرغبة في الحياة.

– أيتها الجميلة، الرقيقة، النائمة كطفل صغير فوق كتفى، بللنا الماء ولم يروِ الظمأ. حملتك ولم يجللنا الشوق أو يحتوينا. طوقتُك بذراعى وما اهتزت نشوتنا. بل لم نفتح لها بابًا ولا نافذة. يخفق قلبى خوفًا عليكِ. أتوسل إليك بفؤادٍ منحته إياكِ يوم مر طيفُك بشباكى. يوم سطع قمرك في ليلى الطويل. أتصدقين أنى قرأتك قبل الرؤية، ورأيتك قبل أن أبصرك، فلما أبصرتُك كنت أنتِ أنت. طيف أحلامى. ووجه رؤاي. وعرش تحققى. أتوسل إليكِ بكل من تحبين حتى ولو لم أكن في زمرتهم. بكل لحظة سعادة طافت أيامى وكنتِ أنتِ باعثتها وسببها. بكل أغنية شوق رتلناها على عزف قلوبنا وقت اللقاء. أتوسل إليك بكل حرفٍ كتبتُه لك. وما أكثر ما كتبتُ، بكل خطاب أرسلته إليكِ وقد نسيت–من كثرةٍ– العد. بكل حلم رأيتُه في ليلٍ كئيبٍ فأحال الليل

منارةً لروحى. موطئًا لقدمى، نعمة لقلبى. أتوسل إليك بكِ بحقِّ أحلامنا أن تفيقى، أن ترفعى رأسَك، لا تحسبى أنى ضقتُ بحملك فهى أمنيتى، ولا تعبتُ من مشقة، فلا يتعب من يحمل الورد، بل يستمتع، بل أستحلفُك لأن الماء كاد يغمر رأسك. أفيقى كى نعبر الظلام بحبِّنا. نتخطى قضبان الموت معًا، فلا حياة إلا معًا. لا معنى إلا معًا. أرجوك يا سلوى، الخطر يحدق بكِ. يحاصرنى.

أنزلها من على كتفه، أمسكها من وسطها ورفعها عن الماء، سار بها، قلبُه ينتفض بين ضلوعه فَرَقًا أن يصيبها مكروهٌ، يُردِّدُ عشرات الأدعية، تطوف برأسِه عشرات الظنون، جميلها وقبيحها. أيأتينا الفِراق في ثوب من ماء؟ عشرات المواقف عِشتُها، كان يجب علىَّ الاختيار فيها، اخترتُ بلا عناء. مرة أتَّبعُ قلبى، ومرةً عقلى، ومرات أهوائى. لم أندم على اختيار قط. لم أبكِ على منفعةٍ فاتت، ولا منفعةٍ طارت.

هذه المرة الاختيار عسير. الاختيار بينى وبينى، فأيُّهما اخترتُ خَسِرْتُ، الفارق الوحيد في مدى الشعور بألم الخسارة، فلو اخترتنى لشعرت بالندم للمرة الأولى، نعم سأبقى بعدك لأشعر بوخزاته وآلامه وأرقه وجنونه. ولو اخترتكِ- وأنتِ أنا- فالخسارة هى أنا، لكنى لن أحيا لأشعر بشيءٍ من ندم، كما لن يبقى من العمر شيءٌ لأحبك بقدر ما تستحقين. ألم أقل لك: الاختيار عسير؟! والمفاضلة تكتسى بالرعب والخوف؟ والاختبار مؤلم؟ والزمن المتاح لكل هذا صفر؟! إني أخشى أن تدهمنى الأفكارُ والمُوازنة بين الألمين والفقدين فأفْقِدُنا معًا، وأخاف الاختيار فأنهارُ بعدَك، أو تنهارين بعدي!

شكوتُ لشيخي سُوءَ الحال.

قالَ: شكواكَ لغير مولاكَ، سوءُ أدبٍ، ينتقصُ من قَدْرِكَ لديه.

قلتُ: لا أشكو إلا لكَ.

قالَ: حتى لي... حتى لي، وولَّى مُدْبِرًا.

٨:٠٥ ص

(١)

وضع "ضبش" كفيه كبوقٍ حول شفتيه هاتفًا:

- لأتبعنك حتى آخر أيام حياتي. خاسرٌ من لم يتبعك يا مولانا.

داعب هتاف "ضبش" آذانًا، واخترق قلوبًا، واستقرَّ في أرواح مُتعَبة أنهكها الفَرارُ. وأعيتها الحيل للنجاة، فبحثوا بعينهم عن المخاطب ورأوه... مهيب الطلعة ثابت الجَنان. مُضيئًا. ففروا إليه يتلمَّسونه ويبغون القُرب منه والأُنس به. طامعين في النجاة به، والنجاة معه. كشهاب استقرَّ بوجدانهم لن تكون النجاةُ إلا عَبْرَ دَربه، ولو كان الموت. فهو حسن الختام.

- أدركنا يا شيخ.
- أدركنا نراك صالحًا...
- ادعُ الله لنا كي يكشف عنا ما نحن فيه.

مطرقة عملاقة من صلب لا يلين، ضربت صدر حسن. أحس بصدره يضيق بأنفاسه، تحامَلَ على ذاتِه كي تقف شامخة. واستند بيمينه على جدار النفق، أشارت يسراه إليهم: أن هدوءًا:

- وربي ما بكم من غمٍّ. بل منحة لها ما بعدها، فاذكروا الله بقلوبكم ينجيكم.

- لا تضنَّ بدعائك يا مولانا...

- والنبى يا شيخ.

أجال عينيه فيهم:

- ومَنْ يدعو للشيخ؟

ومن بعيد صرخت زينب:

- عبد القادر، أين كنت طوال هذه السنين.

ونشطتْ للوصول إليه.

***

تشبه ظلمة النفق ظلمات أنفسنا، بل هى أشدُّ ظُلمةً. يتأرجح النور الآتي من الهواتف. كما تلمع وتختفى بعض الأنوار داخلنا، أروقة ودهاليز بلا عدد، متاهات متشابكة، منها ما نعيه ونغرقه في الظلمة بإرادتنا. ومنها ما هو مظلم على غير إرادة منا.

ظُلمتان التقتا في درب النهاية، ظُلمةٌ تفتح فاها لتبتلع الأعمار والأجساد، وظُلمةٌ تفتح فاها لتتقيأ ما فيها من سواد مجهول، ظلمة الموت تحمل سراجًا من نور، تتجوَّل به في كُهوف النفس كى تعيد لنا البصيرةَ؛ لنرى ما كان مُختفيًا، ونكتشف ما كان مُتبئًا.

بلغ الماء الرقاب، اشتدَّ اليأسُ، وأطل اليقينُ برأسِه من نوافذ الظلام.

- يا بنى امض في طريقِك ولا تلتفت خلفك.
- طريقى طريقك يا شيخنا.
- هذا فِراق بينى وبينك. أهنا يكون الفِراق؟
- لو مضيتَ، نجوتَ.
- أظننى لو بقيت برفقتك أنجو.
- طريقانا اختلفا. رأيت طريقى. فامض.
- لن أمضى.
- إن كنت تحبنى فامض. إني رأيت دربًا أبيض، يصعد بي إلى ساحة فسيحة. - لا يسعنى إلا الإذعان والسير فيه.
- إذن خذني معك في دربك.
- لم يؤذن لي في ذلك.

أفلت الشيخ يد حسن. وترك جسده للماء. ثانية أو أقل واختفى. اختفت الروح من جسد حسن. لا يبين من أمارات وجودها غير صدر ينخفض ويعلو. إنسان العين توقف. دمعها تحجر، برهة كدهر، وحزن مقيم كحزن يعقوب، وذهول كلحد، وأمل فرَّ كسراب. هز رأسه بشدة، وغطس في الماء كسمكة يبحث عن أنفاس حياة فقدها. ضاق صدره فارتفع، نفس عميق ثم عاود الكرَّة، لا شيء، لا شيخ، لا أمل، حلم مرت به شمس الحقيقة فذاب وانمحى، صفحة كتاب سقط الماء

عليه فتلاشى حبرها. أغنية حلوة مرت بأذنيه وانسكبت في روحه ثم انتهت.

- كلا.

شقت صرخته طريقها من أعماق جوفه فملأت جنبات النفق المظلم، وسكنت حركة الناجين، كأن الموت التقمهم. ظل يدور حول نفسه فَزعًا، عيناه تدوران في جنون. الشيخ لم يغرق. بل اختفى كعادته. انتقل من مكان إلى آخر. سيظهر ثانية، لا يمكن له أن يختفى هكذا أو يموت كما يموت الناس، لا يجوز له أن يدعنى، يرحل دوني، يتركنى في ظلمات بددها وجوده، في شتاء دفأته كلماته. يقينى أني حين أنجو أجده في انتظاري على باب المحطة الخارجى. ألقاه مبتسمًا كعادته. جميلًا، مهيبًا، ناصحًا. يحمل سراج النور في يمينه. والأمن في حضرته. والرضا في كلماته. فلتكن النجاة دربي كى ألقاه.

طفا فوق الماء. سبح بعنفوان ونشاط. يضرب الماء بذراعيه ضربا موجعا، يمرق كسمكةٍ وهو الذي لم يتعلم فن العوم. لكن الخطر مُعلِّمٌ عظيم. مضى الشيخ كأن لم يكن، ضاع جسدُه وبقيت لوحاتُه دالةً عليه، سراج من نور يتأرجح داخل حسن. كلماتٌ باقية زادًا لعمر قد يطول، ودربًا لا يحيد عنه ما كان.

(٢)

كفَّتْ زينب عن الهرولة، اختفى وجه عبد القادر فجأة كما لاح فجأة. عبد القادر الطفل الوديع صار شيخًا، عرفته من عينيه، كل شيء يتغير في بنى آدم إلا عينيه. بقىَ سعيدًا العبيط، لو رأيته. أيضًا لرأيت الماضى الجميل كله. فذات مساء بعيد، هاجمناه. اتهمناه بكل نقيصة. وأخرجنا كُلَّ ظلامنا وفردناه على عَتباتِه. رأيناهُ إبليسًا. عجزت عقولنا عن رؤية دربه، وقلوبنا عميت عن نوره، وأرواحنا عن مدارك معارجِه. ألجأناه إلى الهروب، وهرولنا في إثره، نبتغى قتله، هو الذي لم يبتغ إلا خلودنا، مزقنا جلبابه، فرّ عاريًا إلا من سروال قديم، كنا وراءه، وقطع النهر الطريق من أمامه. هللنا بقرب النيل منه.

هنيهة توقفها على شاطئ النهر. لعله كان يُلقى وصيته الأخيرة، أو يرتل آخر مَقطوعاتِه غير ذات المعنى. لم يتلفت خلفه، خلناه استسلم لقدرِه، وارتضى بالهلاك نصيبًا، رفع يده نحو السماء المظلمة، أضاء البرق، وصك مسامعنا الرعد، خطا فوق الماء، ها هو ينتحر، يفضل الغرق على الوقوع في أيدينا، حمله الماء على ضوء عيوننا الذاهلة، سار مطمئنًا.

وقفنا على شاطئ النهر، نجيل النظر ببلاهة في أسلحتنا وفي وجوهنا وفي السماء. وسؤال يحلق بيننا وبينها: ماذا هناك؟ لم نره بعدها، التمسناه في كل القرى حولنا، بيد أنه كأن لم يكن. تغيرنا جميعًا بعده. ووحدي بقيتُ أنتظره موقنةً أنه آتٍ. شعرت بالماء يكاد يغمر وجهها، ففردت جسدها وبدأت في السباحة. هى لا تجيدُها. لكنها حاولت تقليد من كانت تراهم يسبحون في الترعة، يفردون أجسادهم ويضربون الماء بأيديهم وأرجلهم، وهكذا فعلت، تضرب الماء بيديها العفيتين، بساقيها، لكنها لا تتحرَّك إلى الأمام إلا قليلًا، تشعر بجسدها ثقيلًا يبتغى الغوص. نَفَسُها يضيق ولا تستطيعه مع حركات السباحة. صراع الحياة قد يكون مميتًا. مكابدة العيش كدٌّ وكفاح. تستمر في الضرب والرفس، ثم ترفع رأسها، تشهق بعنف، تضع رأسها في الماء وتعيد المحاولة من جديد.

– هناك ضوء.

اقتحمتها الصرخة. كحد فاصل بين الموت والحياة. كروح تتسلل إلى جسد من طين. مؤلمة جدا. لكنها حياة. كصرخة طفل خرج توا من رحم أمه. حين يتلمس الهواء طريقا إلى صدره. شبح أسود عملاق. ينهب الماء نهبًا للوصول إليها، وبصيص ضوء يكاد يختفى خلف أجنحة الشبح، كلما اقترب الشبح منها ضَعُفَ الضوءُ وقلَّ. حتى صار الضوء شبحًا بعيد المنال، عصيًّا على الرؤية. قاومت البنتُ ذات الضفيرة قدر طاقتها، ما اعتادت على الاستسلام قط. نَمِرَةٌ مُقاتلة منذ الصبا، وما

زالت. أشباح كثيرة تداخلت مع الشبح الأسود. لكنها بيضاء. ناصعة البياض. باسمة، حبيبة. ترفرف بأجنحتها فتمحو من النفس كل أثر للخوف.

ها هو غندور في جلبابه الأبيض، نظارته الشمسية، يُناجى شجرة برتقال، يصدح بالغناء تحتها، والعصافير اقتربت ترفرف حوله، تدندن معه، يرفع نظارته، يغمز لها بعينيه، تبتسم، ترنو إليه برهةً، تسدل جفونها فوق النظر خشية افتضاح سخونة نبضة بازغة، تشى باشتياق بغير حدود، ولهفة لا يحتويها شطٌّ، وحنين يدهس المسافات إليه، نظرة جائعة إلى حضن تستكين داخله، قلب تسكن فيه.

– انظري يا زينب ها نحن ذا معًا. هلمى إلىَّ. خطوة واحدة بعد، وتصبحين بين ذراعى. اشتقتُ إليك حبيبتى.

– ما زلت كما عهدتك حبيبى، ساحر الكلمات والمشاعر، فاتن الطلة، جميل الوجه والروح، ما اشتقت إلا إليك، ولا يحتوينى إلا قلبُك، ولا أمان إلا بين أحضانِك، لكن الأولاد يا غندور. أنعيش الهوى معًا ونثمل من كؤوس شوقٍ ونتركهم؟! لا يا غندور، ليس لهم غيري الآن، وذكرى جميلة منك.

– زينب...!

تمدُّ النظر خلف غندور. تلمح والدها الحنون. كلما تقدَّم نحوها خطوة امتدَّ الدرب تحت قدميه بمقدار خطوته. كأن الخطوة درب. ووراءه بخطوة والدتها. أكل الأحباب معًا وأنا وحدي.

– كلنا معكِ يا ابنتى. كوني بخير. ارحلى في سلام. لا تسيري دربنا. لم يئن الأوان بعد. دعها يا غندور. استمسكى بأولادِك بُنيتى. قاومى يا زينب، وحينما يحين الوقت سأكونُ معك. أول من يأخذ بيدك. إنما الآن.. لا.

تموَّج الشبح الأسود العملاق. تلاشى بغتة كما ظهر. أيدٍ كثيرة تهزها. حاولت أن تفتح عينيها. ضوء الشمس يغشاها. أصوات كثيرة متداخلة، زاعقة، عنيفة، أدعية كثيرة تقال، أصوات بكاء، دموع تنسكب فوق وجهها. ملمس هذه الدموع أعرفه. وهذا الصوت الهادئ، إنه ابنى أحمد. استجمعتْ بقايا من قوة في عروقها وحاولت أن تصرخ باسمه، خرج الصوت ضعيفًا، باهتًا، نصفُه حياةً والنصفُ الآخر موتٌ:

– أحمد.

– حمدًا لله. حمدًا لله. كلنا هنا يا أمى معك.

فتحت عينيها في بطء وهدوء لمحت الوجوه الباكية. وجوه أنفقت صباها عن رضا كى تنمو وتزهر. أبناؤها حولها. ومن ورائهم وقف أبو سليمان. الرجل المريض. جارها القروي البسيط، سندها في زراعة الأرض والاطمئنان على الصغار–أيام كانوا صغارًا– الرجل الذي سافرت للمرة الأولى من قريتِها لأجله. الرجل الذي تركت أولادَها وحدَهم كي تزوره في المستشفى. ترك سرير المرض كي يطمئنَّ عليها.

غادر معهد الكبد عندما علم من التلفزيون بما حدث. ولما كلمه الدكتور أحمد كى يسأل:

- أوصلت زينب عنده أم لا؟

شعر أنها في خطر. أنها تتعرض للموت في بلاد لا ترحم، غادرت قريتها لواجب وتموت غريبة في قلب القاهرة التى لا ترحم الغرباء، آثر أن يكون في استقبالها إن نجت، أو أن يكون بجوار أبنائها إن هلكت.

- طول عمرك أصيل يا أبا سليمان.
- هي عشرة طيبة يا ابنة الأحباب.

- رأيتُ وأنا في غيبوبة الموتِ حلما. رأيتني بطني منتفخة، وألم شديد يعتريني، يتناوبني مع الصرخات، أصواتُكم تأتيني من وراء الحجب، هيا زينب، هانت، احزقي.. رأس المولود ظهر، شدي حيلك، احزقي مرة أخرى. يتصبَّب العرقُ غزيرًا على وجهي، يدخل أعيني كاويًا، حارقًا فلا أكاد أبصر شيئًا. ظلمتانِ تحيطان بي وبعالمي: الحلم والعرق.. صراخ رفيع حاد جاوز بي بعض الظلمة...

- مبروك يا زينب.. إنه ذكر يا فتاة... ماذا تسمينه؟

لم أفكر كثيرًا، هو غندور...

وانحدرت دمعتان...

(٣)

ندت من سلوى تنهيدة، إفاقة خاطفة سمعت خلالها حامد وهو يحدثها:

– وفيكِ لو تعلمين، بقايا من نبوءة، مخبوءة بين العينين وطلاسم أساطير أُخفيتْ بمهارةِ مبدع، في احمرار الوجنتين، وأصل الورود والربيع والوجود، مصلوب كطابع بريدٍ فوق الكفين. يا سلوى، تطهرتُ من خطايا أيامى في ماء عينيكِ، ثم تلوت أوراد الهوى واستأذنت للمكوث في حضرتكِ. أملك لغتين، واحدة أواجه بها العالم، والأخرى لك وحدك. صوتكِ، تغار منه الرقة. تقاطيعكِ شاهد جمال متفرد. نبراتكِ نشوة تُلهب الخيال وتدفع الدم في عروق الحياة. عيناكِ طبقات من موج يغري المارين بتعلم فنون العوم. شفتاكِ طبقا فاكهة. كفاكِ ورود وعقود سلام. عندما تهمسين باسمى أوقن أن لا أحد ناداني من قبل.

قطع تراتيل النجاة وضراعة الرجاء وتسابيح الهوى صوت صارخ:

– ضوء...

واستطرد في إلهام ثَمِل من فرح بالحياة:

- ضوء ثابت على مقربة منا.

منح الأمل للمستسلمين لليأس، طاقة. نفخ في عروقهم روح وفي عضلاتهم قوة. ما أعجب الأمل! ابتسم حامد قائلًا:

- هي النجاة يا حبيبة روحي. النجاة يا سلوى، هيا، فلتعطيني يدَك، ولنَسِرْ إليها معًا.

جاوبه الصمت. سكت وعلم أنها عادت إلى نومها أو غيبوبتها.

سألتُ شيخي الدعاء لي ولأحبابي.

ابتسم وقال: إذا كان دينُكم الحبُّ للمحبوب، فما حاجتُكم للدعاء؟

طوبى للمُحبين! طوبى للمحبين!

فالمحبَّةُ سرُّ الوصول. ومفتاحُ السِّرِّ إنفاقُ المحبة على مَنْ يستحقُّ ومَنْ لا يستحقُّ.... ومضى.

٨:١٠ ص

(١)

رأتْ زينب النور يتوارى، الأمل يبتعدُ بعدما كان قريبًا، أكان نور النجاة أم هو الضوء الخاطف اللامع الذي يرونه قُرب الرحيل؟ ها هي تتأمله، وفوق شفتيها ابتسامة محبة وإعجاب. يدها على شعره المسترسل، تكاد تلتهمُه بعينيها، لولا مخافة أن تزعجه، أو تقطع عليه رحلة النوم. كم تعشق النظر إليه نائمًا أو يقظًا! في كل أحواله جميلٌ، راقٍ، رجل. يتململ في رقدته، لعل الملائكة أنهت طبق الأرز. يهمس:

- زينب. زينب.

تبتسم حين ترى جفونه منسدلة:

- لبيك حبيبي، أو تحلم بي وتناجيني في أحلامك؟ أأطاردُك هنا أم تطاردُني في حدائق النور والبهجة؟

تزداد ابتسامتها اتساعًا، ووجهها إشراقا:

- أو لعلك تنادي والدتك، زينب التكوين وسفر الخروج ووجع الفِراق كما تسميها. كلانا زينب، كلانا حبيبتُك. أسكنتنا فؤادك.

وأسكناك أرواحنا. ألمح تلك النظرة العميقة المُحبة حين تقف أمام صورتها المعلقة على جدارٍ غربيٍّ في "المنظرة" أسمع كلامًا ليس مثل الكلام، وأرى حبًّا يتضاءل أمامه كل حبٍّ، وأتساءل: لو سبقتُك في الرحيل فهل ستحبُّني كما أحببتها؟ وهل ستفي لذكراي كما وفيتَ لها؟ ما من سيدة في الكون غِرتُ منها قدر زينب. كم صرحتَ بهذا! وكم أخبرتني أنك الوحيد الذي خلقه الله بقلبين، قلب لزينب التكوين، وقلب لزينب الخلق الجديد!

لا يمكن لأحد أن يحبهما معًا بقلب واحد، لا يليق بإحداهما إلا قلب كامل، عله يستطيع الإحاطة بحبهما. يا ويحي أخشى أن تكون تزوجتني لأن اسمي كاسمها، ويقولون إني أشبهها في الطباع. ولعلها يا حبيبتي كانت زينب كي ألقاكِ وأتزوجك فلا أشعر باغتراب في حياتي. يا ترى من منا تناجي في دروب النوم؟

أمسك بيدها ولثمها.

- أيقظٌ أنت يا غندور؟

- بل ثمل يا روح غندور، ثمل حد الإغماء والغرق في بحار محبتكِ وعشقك والشوق إليك.

- لا أحد يغلبك في الحديث يا رجل.

وهمت بترك مسافة بينهما-دلالا- فقبض على يدها.

- ضعي تلك فوق هذا.

وأشار إلى قلبه واسمعي ماذا يقول.

- لا يقول شيئا إلا أنك تدلل يا رجل.

- بل مُحبٌّ عاشق.

واختفت الغرفة كلها وغندور معها وحل مكانه حقل، يجلسان معًا على تَلٍّ من رماد وهو يقول لها:

- أتعلمين يا زينب: لكل قرية عبيط وعمدة. لا تخلو قريتنا منهما أبدًا. تتغير الأشكال، وتتبدل الأزمنة، ويبقيان. ربما نطلق على العمدة أحيانًا الباشا، أو البك، أو المعلم، لكنه سيد القرية في كل الأحوال. وكذا العبيط نقول عنه الأهبل، أو المجذوب أو المبروك، لكنه الوحيد الذي لا يُسأل في قريتنا أبدًا عن فعله مهما يكن. وها هي قريتنا القابعة منذ الأزل وسط الحقول الخضراء. ربما تتريض، وربما تتخفى. لم تشذّ عن هذه القاعدة. ففي وقتنا هذا عمدتها هو الحاج/ سعيد، وهو ليس عمدة فقريتنا صغيرة حد وجود خفير واحد بها ترسل به إلينا قرية مجاورة. لكنه الرجل الذي يملك عشرة أفدنة مِلْكًا خالصًا، وعشرة أفدنة إيجارًا، وعشرة أبناء ذكورًا، وعشرة بيوت. إذا خرج ساعة الأصيل ليجلس أمام داره وتحلقوا حوله بأبنائهم وبناتهم رأيت قريتنا عن بكرة أبيها، وإذا خلد للراحة وقبع في سريره فلا تسمع نأمة حول الدار حرصًا على راحة الحاج، السيد المطاع-على حمق فيه- في قريتنا.

أما العبيط فهو سعيد أيضًا وهو وحده الذي قد يخدش الهدوء المضروب حول الحاج سعيد حين نومه، يستطيع أن يصرخ كما يشاء الصراخ له، بل أحيانًا يقذف باب الدار المغلق بالطوب، ويخرج أبناء

النائم يسترضونه ويُلاطِفونه، ويحشون فمَه بكل أنواع الحلوى ليصمت –دون أن يصرخ أحدهم في وجهه، أو تمتدُّ يد لتلطم وجهه- أحيانًا يرضى، وأحيانًا يواصل صرخاته الغاضبة بلا سبب أو يقذفُ من يخرج بالطوب.

وهنالك دائما شيخ. لا تكتمل الصورة إلا به، ولا تضحى القرية قرية إلا بوجوده. ربما يكون شيخًا حقًّا، وربما يكون مجرد رجل طيب يعبد الله على فطرته، وأحيانًا يكون شيخًا بلحيته التي قد تخفي وراءها ثمة أمور غير الدين. لكنه من أعمدة قريتنا، وشيخها الآن الشيخ راضي، ذو كرش ضخم، ووجه ضحوك، وطيبة مثل أرضنا ننهكها وتعطينا بلا حساب. طيبة كالبلاهة أو أشد وطأة، فقد استفتاه يوما "عزازي" الأقرع أنه طلق زوجته ثلاثًا ولا يطيق عنها بعدًا، فماذا يفعل؟ فأفتاه الشيخ راضي بأن يجعل "سعيد المبروك"-عبيط قريتنا- يضاجعها، فإن فعل كانت له حلالًا. لكنهم قالوا: لا بد من الزواج يا شيخ، وما الزواج يا ابن آكل ناسه إلا إيجاب وقبول وشاهدي عدل، فإذا حدث الوطء كان الإيجاب والقبول، وأما الشهود فأنا وأنت، والطلاق بالمثل.

ولما استنامت نفس "عزازي" لهذه الفتوى الدكناء، ووضعها موضع التنفيذ محضرا "سعيد" ونصف كيلو من اللحم ليغريه به، وانصرف تاركًا "زوجته" معه موصيًا إياها بالوطء حتى تحلَّ له...

وقع سعيد فيما لم يعهده من قبل، رائحة اللحم تملأ المنظرة، وتقتحم "فوزية" المشهد، قوية طازجة، والشهوة الفطرية تذرف دموعها كشلالٍ غير منقطع، تتوهج الأنفاس وتتسارع كأنه الموت، لكنه موت كالحياة، خالد لم تجربه قط. انزاح من فوقها كجبل لم ترغب قط في انزياحه. وانطلق بنصفه العاري في القرية يصرخ، سعيد أكل لحم. سعيد أكل فوزية.

– يا زينب إن أردتِ الحياة كريمة بلا مشكلات تستعصي على الحل، فابتعدي عن أعمدة قريتنا. بل فري منهم حبيبتي فرارك من الأجرب. فالاقتراب من العمدة لا ريب قد يُسعد النفس ويمنيها بقرب الفوز ببعض مغانم الحياة، لكن نظرته لكِ لن تعدو نظرة سيدٍ لعبده، أو الشك في نياتكِ ودوافعك للاقتراب، أو اعتبارك طامعة فيلقي إليكِ بعض فتاتٍ. والخاتمة موتٌ أو حبسٌ أو جُرسة. أما العبيط، فاعطفي عليه ما شئتِ لكن لا تدخليه دارك فيرى منها ما يبثه للقرية بكاملها دون وعي منه. والشيخُ إن صلح فلن يقرب أحدًا إلا في خيرٍ، وإن فسد فستجدينه ركابًا للعمدة. انظري موقع الشيخ من العمدة تعرفينه. كوني مع الفلاحين يا حبيبتي، وبينهم إن أردتِ ونسًا وعِشرةً وإلا فبيتُك وأولادُك وأهلُك وكفى.

– وأنت يا حبيبي...؟

– في قلبك يا امرأتي الحلوة.

(٢)

لمح حامد النور تحت الماء قويًّا باهرًا، هو الأمل الزاهر لا ريب، هي النجاة قد فتحت عيونها عن آخرها.

– أبشري يا سلوى بالحياة، افتحي نوافذ الوعي للنور والشمس. نحن قاب قوسين من النجاة معًا.

خرجا. تنسم حامد الهواء عليلًا. وانتحى جانبًا، مُسندًا رأسه وظهره على جدار المحطة، مَلفوفًا في بطانية أنزلها سكان العقارات المجاورة للناجين. حياة جديدة وُهبت له. وروح جديدة سيلقى بها العالم. المسعفون ووالدها يتحلقون حول سلوى. هُنيهةً ويسترد وجهها لون الحياة. يحتضنها ويلثم خديها وجبينها. عينا سلوى تفتشان عن آخر، تجوب الأرجاء بحثًا عمَّن حملها وسط أمواج الموت. تتلاقى الأعين. تتبادل الأحاديث. يبتسمان.

– إن كان للنجاة أسباب منطقية، فهذا الفتى سبب نجاتي حملني وأبَى أن ينجو وحده.

قالتها سلوى لأبيها. فتوجَّه برأسه وحديثه نحو حامد قائلًا:

- كل الشكر لك بني. كيف لي أن أكافئك؟

وقَرَنَ القولَ بالفعلِ، فأخرج حافظة نقوده واستخرج منها كومةً من الأوراق النقدية ذات المئتي جنيه ومدَّ يده بها إلى حامد.

- مكافأتي نجاتها. ووحدها تلك المكافأة تكفيني.

ورد يد والدها بلطف بيده.

- آه. سنلتقي لا شكَّ في ذلك.

أشاح حامد بوجهه وغرق في ظلمات أخرى. وسط البراح، تنمو الأسئلة. تتكشف الحجب، وتتساقط الظلمات. تنظر فترى كل شيء بوضوح، ولربما تلمح بعض ما سيأتي. تتمدد الأسئلة بعيدًا عن الضوضاء والجلبة التي يصنعها النهار والناس، أسئلة ربما لو طرحتها على الشمس لأفلت، ولو طرحتها على سمع النهار لاتهمني بكل نقيصة.

أسئلة لا أطرحها إلا على البراح، وأبحث معه عن أجوبة شافية ناجزة قاطعة. ولكن هل لتلك الأسئلة من أجوبة كافية؟ بالقطع لا، مجرد مسكنات للروح وللقلب، وإن شئت الدقة هي حبوب منومة لكل الأسئلة. حتى لا أستغرقكم في إطار فلسفي –لم يعد العصر السريع اللاهث – يحتمله، ولا أنتم، فضلت طرح أسئلتي كاملة على سمع الليل وصفحات الوحدة وقلب البراح. لن أطرحها بشكل مباشر، فهي مُراوغةٌ بطبعها... بل سأبحث عن إجاباتها وأقصُّ عليكم ما أصلُ إليه. إجاباتي ليست الحقيقة، لكنها كذلك بالنسبة لي وحدي.

(٣)

رجال الحماية المدنية يعملون على قدم وساقٍ في محطة مترو السادات بالتعاون مع رجال البحرية المصرية. أنزلوا سلام خشبية وحبال إلى الماء. أقاموا شبكة بعرض المحطة بكاملها كى لا ينجرف الأشخاص الفارِّين من الهلاك أو جثث من قضى نحبه إلى ما بعد المحطة. دلف بعض الرجال بأسطوانات الأكسجين إلى النفق كى ينجدوا من تعثَّر وكاد أن يلقى حتفه، بمنحه قُبلةً مِن هواء. تفتح نافذة صدره على الحياة وتمسُّ أوتار الأمل في روحه بثًّا.

أضاؤوا أعماق الماء بكشافات باهرة. تجاهد كى تنير دروب ماء النيل الغامقة. بعض الصبية نجوا دون ذلك، أنقذتهم سرعة العدو وقصر المسافة التى لا تجاوز كيلومتر واحد. بلغوا المحطة قبل أن يبلغ الماء صدورهم، ارتقوا إلى المحطة العلوية فكتبت لهم النجاة. تلقفتهم الأيدي وكاميرات التصوير والفضائيات. نجوا لسرعتهم. لعدم اعتدادهم بالآخرين. كُلٌّ قال نفسى ومضى. والبعض تعثر لمرض أو لكبر سن أو لغاية في نفسه. والبعض تأخَّر لمساعدة من يحتاج.

حينما غاص الرجل في الماء حاملًا فوق ظهره أسطوانة أكسجين. وفي يده أخرى لم يكن يدرك ما سيجد. حكايات كثيرة وجدها أسفل الماء. قد يطول به العمر ليقصها على أبنائه. فعلى هدي مصباح يحمله. وجد رجلًا جالسًا. نعم جالس تحت الماء، ظنه ميتًا، تعجَّب في نفسه من هيئة الموت، من هيبته وجبروته. اقترب من الرجل، لمح يده تتحرك، اندفع إليه فما زالت به بقيةٌ من حياة.

تواجها معًا، رأى بيد الرجل خرطومًا، مما يستخدم في رش الماء، طرفه في فم الرجل، تتبع الطرف الآخر وجده محشورًا بين بعض الأسلاك في أعلا النفق. لقد اخترع الرجل لنفسه مُتنفَّسًا. وغاص في الماء ينتظر أمرًا كتبه الله. تشبَّث بالقضبان حتى لا يجرفه التيار. ابتسم المنقذ في وجهه ومنحه الأكسجين وسبح به نحو الشمس، كان هذا الرجل حمكشة أخرته السرقات وطمعه حتى فيمن قضى نحبه. وبعد أن الحصيلة وجد نفسه في مواجهة الموت وهو الذي لا يعرف العوم. وجد جثة "محسوب" وهو بائع سرِّيح يبيع بعض الأدوات المنزلية ووجد معه خرطوم ماء، فأيقن بالنجاة والحظ معًا.

ما إن استقر "حمكشة" أرضًا، وغمرته الشمس. حتى تحسَّس ما تحت جلبابه. واطمئن إلى الكيس البلاستيكى المربط على وسطه. نجا ونجت غنيمته، رفع رأسه قليلًا يتأمل المنقذون علَّه يجد "بطة" بينهم، أو "ضبش" غير أنه لم يلمحهم، اعتدل، أرجع بصره مرة أخرى فيمن حوله، لا أحد ممن يعرف. قص حمكشة على ضبش فيما بعد ما حدث له في هذه اللحظات التي أعقبت خروجه قائلًا:

– جلستُ القرفصاء أتأمل ما حولي في هدوء منتظرًا لحظة أغتنمُها كى أمرق من الجمع. ألوذ بالهرب فأفوز بالنجاة وبالغنيمة. كانت ساعة مُضنيةً، كابدتُ فيها الموت، واقتنصت الحياة والمال. غريب أمر هذا العقل، يغرق في الخطر لكن الخطر أحيانًا يجلوه، فيعمل بطاقة قصوى ما كان يعرفها قبلً، في الوقت الذي كنتُ أبحثُ عن النجاة كغيري، فاجأني بابتكارٍ يبدل الحياة البائسة بأخرى ناعمة باسمة.

نتعجب أحيانًا من قرارات اتخذناها دون وعى. وأشياء حملناها دون فائدة، نجد لها فائدة قصوى في لحظة لم نكن نتخيلها أو نعرفها. ما الذي حملنى مثلًا فجر اليوم على حمل مجموعة من أكياس القمامة السوداء؟ أو البحث عن محسوب واختياره خرطوم مياه مع البضاعة التى يحملها كى يبيعها لركاب المترو، شيئان، حملتُ أحدهما، وحمل محسوب الآخر، وكان سببًا في نجاتي إلي حين. لولاهما ما كانت النجاة ولا الغنيمة. فالخرطوم أنقذني من الغرق. وبكيس مما حملته حفظ الغنيمة من البلل.

إن وراء العقل القاصر عقلًا جبارًا يكشف الظلام ويجوبه بسراج منير، لكنه لا يظهر في كل الأوقات ولا يستغله إلا بعض الناس. لست أدري ما هذا، ولكنه لديَّ، هكذا أفلت من الموت مرات. وهربتُ من السجن مراتٍ، هكذا تُكتب لى الحياة.

ولو طاوعتنى يا ملعون لكان لنا اليوم شأن آخر. لا يهم فقد أطاعتني "بطة" وهي بألف رجل. لا ريب أن غلَّتها ستكون أكثر قيمة

ومالًا. يحيرني تأخرها. يحيرني غيابها. لكنى لستُ قلقًا. فهى تفلت من الموت حتى لو كانت في معدتِه.

أم أنتَ فرفيق عمر طويل. رفيق جرائم متعددة. وسجون شتى. ومعارك لا حصر لها. إنك بلا قلب تقريبًا. لا تهابُ شيئًا، أنقذتنى من براثن لصوص عُتاة، ومنحتنى آلاف الفرص كى أحيا. كنتَ ساعدًا قويًّا، ومطرقة أبطش بها بمن أشاء، ما الذي غيرك؟ ما الذي حدث فأبدل بالقلب الميت آخر حيًّا، وباللصِّ شيخًا تائبًا لا يبتغى عن التوبة بديلًا. في كل الأحوال رجوت لك النجاة. وأقسمتُ بينى وبين نفسى أن أقسّم الغنيمة بيننا، الثلث لك والثلثان لى. فالعشرة لا تهون يا ضبش. فقط عُدْ إليَّ.

ما أجمل لفافة تبغ الآن! ولكن من أين؟ وكوب من الشاي! وضحى فاتنة المقهى!

– سأنقدك "بقشيشًا" اليوم لم تحلمى به قط. فقط ابتسمى تلك الابتسامة التى تخلع القلوب وتحركها من مكانها وتضع في القفص بدلًا منها نشوة ماجنة.

لتكن ليلة ما بعدها ليلة يا ضحى. نسهر حتى الصباح. ندفع الثمن أضعافًا ونفوز بما حرمتنا منه بسبب الفقر.

ابتسم عن فم أصفر الأسنان، وما لها "بطة" هى امرأة فاتنة أيضًا، نعم لكل امرأة جمالها الخاص، وسِرَّها الذي لا تُشارِكُها غيرها فيه،

وفتنتها، بعضهن فتنتهن في صوتهن الهاتك لأوتار القلوب، وفتنة أخريات في نظرتهن، تلك التى تقيم رجالًا وتُقعِدُ رجالًا. وبعضهن فتنتهن في أجسادهَّن، قطع من نعيم تطارد بعضهن بعضًا. وفوق ذلك لن تكلفك "بطة" شيئًا، فهى تحبُّك، لتكن ليلة بطة، عرسنا، نستمتع معا ونعيش معًا، نشرب معًا، ونعمل معًا، هى "بطة" لكنى ذو عين زائغةٍ، أعشق كل الفواكه، كل النساء، كل الورود.

– قم يا "حمكشة" التمس سبيلًا لشراء كوب من الشاي، وعلبة من التبغ. وفر من هذا المكان. ستلحق بك "بطة" و"ضبش" بعد حين. وربما سبقاك.

الجلوس هنا، أشبه بالجلوس على فوهة بركان. المكان يعجُّ بالشرطة، والمخبرين، وغيرهم، وأنت وجه مألوف للبعض. فلتمض.

نهض ببطء تمطَّى كى يطرد الكسل وتيبس العضلات. دقَّ بكفه على بطنه ليطمئن لكنزه. خطا خطوات معدودة بعيدًا عن تجمع الناجين.

– إلى أين تذهب يا لص؟

فاجأته الكلمة. توقف هنيهة. ثم واصل المسير كأنها ليست له. خطوة واحد بعد. وتنجو من الفخ. خطوة تخرج بها من حلقة الناجين والفخ الكامن فيها وحولها ويضيق من حولك، إلى حلقة الحياة حيث لا أحد يدري بأحد. أو يسأل عن أحد. خطوة واحدة ويتلاشى النداء. أو يتلاشى المنادَى. فيكف المنادِي.

أذناه الحادتان التقطتا صوت خطوات مسرعة تنال من المسافة بينه وبين طالبه. أطلق العنان لساقيه. فربَّ لحظةٍ واحدةٍ تفصل بين النقيضين، الموت والحياة، الحرية والسجن، الغِنى والفقر. فلتكن لحظته هو، قراره هو. لكن صاحب الخطوات مصر أن يلحق به، أن ينال منه، أهو واحد ممن سرقهم في النفق؟ أهو أحد المخبرين الذين قبضوا عليه سابقًا؟ ماله هكذا كأن اللحاق به أمنية وغنيمة كبرى.

دارت كل العيون ترمقه. تقبض عليه. تشتعل بالأسئلة. بالفضول. تتنقل بينه وبين من يطلبه. انتبه بعض رجال الأمن... هتف أحدهم فيهما:

– توقفا يا هذان.

الفخ يكاد يقبض فكيه حوله. المخبر في مواجهته، والمنادي خلفه، دار نصف دورة. وكاد أن يطير من فوق الأرض. لمح طالبه بطرف عينه.

– إنه الرجل الذي تقول عنه يا ضبش شيخ، وأنقذته من بين براثنى. اللعنة.

يزيح حسن الناس من طريقه كى يلحق بحمكشة.

– الشيخ ليس هنا ليمنعنى عنك أيها اللص. سأنال منك الآن ما لم أنله في النفق. ملعون هؤلاء اللصوص. يسرقون منا الحياة. بضعة جنيهات هى كل ما نملك. قد تكون سببا في موت عزيز أو جوع أسرة شهرًا أو يزيد. لن أدعه يفلت.

استدار المخبر وانفلت من دائرة الناس ليقطع الطريق على حمكشة.

حسن كان أشد سرعة ورغبة. الانتقام يجند كل طاقات الجسد ويستفزها للنيل من المنتقم منه. قفز حسن ليقع فوق حمكشة. أمسك بتلابيبه. حاول حمكشة دفعه. انتهت المعركة سريعًا بوصول المخبر واقتيادهما معًا إلى الضابط الموجود بين زحام الناجين وأهلِهم.

نُـراهِنُ أننـا نُـصارعُ الأقـدار ونُغيِّرُهـا. أو نـصف بعـضنا بالضعف والاستسلام لهاتيـك الأقـدار. يـا ويحـي! كـم نحن واهمون! لا شيء يُغيِّرُ القَدَرَ. لا شيء يُـؤخِّرُ المـوتَ، أو يُعجِّلُه.

أمـام تلـك اللحظـة الحقيقـة. نقـفُ مَـشدوهين. نُعـرِّي أنفسنا أمام مرايا الأيام أو أعين الناس. نكـشِفُ الثـوب عن نقـاطٍ سـوداء. أو يكتـشف النـاس بـؤر ضـوءٍ حَرصـنا على إخفائها حالَ حياتِنا.

٨:١٥ ص

(١)

ضَرَبَ أيمن الماء بذراعيه الفتيَّتين، رَفَعَ رأسَه كي يملأ صدره بأنفاسِ الحياةِ، ثم غاص في الماء يتحسَّس بعض الأجساد المُلقاة في قاعِه علَّ أحدها ما زال فيه نبضٌ أو بقيةٌ من حياة، وجد امرأة تُجاهِدُ لتصعد لأعلى، وجَّه بوصلته إليها، وأمسكها من تحتِ إبطيها وصَعَدَ بها، سَبَحَ بها قليلًا، ثم ناولها لأول من رآه من فرقة الإنقاذ. غاص ثانية، يبحث، يُقلِّب، يتحسَّس، وجد طفلًا صغيرًا مُتشبِّثًا ببعض أسلاك، رأسه فوق الماء، قدماه الصغيرتان تتحركان يمنةً ويسرةً، أسرع إليه، أمسك به، الطفل فَزِعٌ، خائف، يضرب الماء ضرباتٍ عشوائيةً، يفلت من يد أيمن، يغوص في الماء، يُلاحِقُه الرجل في إصرار، حياة طفل هي مستقبل أسرة، أو لعلَّها تكون مُستقبلَ وطن في قادِمِ الأيام، مَنْ يدري؟ لكنها روح تستحقُّ الحياة. يصعدا إلى أعلى.

- لا تخف يا بني. اترك نفسك لي. جئتُ من أجلك.

يسلمه لأحد رجال الإنقاذ، يطالبه الرجل بالخروج، أو الحصول على أسطوانة أكسجين ومساعدتهم، يأخذ الأسطوانة ويكمل الإنقاذ، فهذا ما وَطَّنَ النَّفْسَ عليه، وما أقسم على تنفيذه، هي وظيفته.

(٣)

صافحت الشمس وجه "ضبش"، أغمض عينيه اتقاء الضوء المُبهر، ابتسم لنفسه، حين ذكرته بمقولة والده:

- الضوء أحيانا يُعمي من اعتاد الظلمة.

فتح عينه في بطء وهو يتلفت حوله، يبحث عن الشيخ، يبحث عن البُشرى، وتحقيق الوعد، لقد نَذَرَ نفسَه في النفق للشيخ، استقرَّ بصرُه فوق جسدِ حسن الممتد في مواجهة الشمس، وهو يتلفت حوله، هرُعَ إليه، أنساه اشتياقه السلام، احتضنه بشدةٍ قائلًا:

- هأنت يا شيخنا، الحمد لله الذي دلَّني عليك.

هُرِعَت الدُّموعُ تشقُّ طريقَها فوق وجنتي حسن.

- أيُّ شيخٍ يا رجل، لقد تركني، رَحَلَ!

- أنتَ الشيخ. أنتَ الذي بشَّرتني. أنتَ مَنْ أنرتَ دُروبي.

- بل أنا مَنْ كنتُ معه حينما رأيناك، وحينما اشتبكتَ مع أحد اللصوص في النفق، وأمرني الشيخ بتركه.

– لم يكن معك أحدٌ يا شيخنا، كنتَ وحدَك وبشَّرتني. بالله عليك عقلي لا يحتملُ! لا تتركني وتلوذ بأعذارٍ لا تجد طريقًا لاستيعابها.

واندفع إليه، مُقبِّلًا يديه وقدميه، والفتى يتعَّجب، ما هذا يا سيدنا؟! أنتَ سيدُنا ولستَ أنا، أنت هو، أنتَ مَنْ منحتني كلماتُه الدَّربَ، وإشاراتُه الهدى.

– لستُ أنا، لكني كنتُ معه.

– لم يكن معك غيرُك. كنتَ أنت يا سيدنا، وقد أقسمتُ إن نجوتُ أن أتبعَك.

مجنونةٌ هي، عاقلةٌ جدًّا في ذات الوقت. قاسيةٌ بغير مُبررٍ، بل هي القسوة عينها على البعض. حنونٌ بلا حدٍّ على أقل القليل من البشر. تافهة جدًّا، ويتقاتَلُ حولها الناسُ ليل نهار. ثمرةٌ شهية في أفواهِ نَفَرٍ قليل، فاسدةٌ في أفواه الكثيرين، غانية ترقص أناء الليل وأطراف النهار في مخادع مَنْ لا يحتاجون، وتمنع ثدييها عن الجوعى والمحرومين. فاتنة، قبيحة، كتاب صفحة بالأبيض وصفحات بالأسود. تهب لمن تشاء تلك الصفحة البيضاء، وتوزع السوداء بكرم حاتمي على الباقين. أفٍّ لكِ يا دنيا. أتظنني وليًّا، وشيخًا.

– بعض الظَّنِّ هلاك، ما أنا إلا شخصٌ مثلُك. أسعى نحو النور، نحو الحضرة، أسيرُ حينًا، وأتعثَّر أحيانًا، لعلي سبقتُك شيئًا ما، ولعلَّك تسبقني غدًا. المضمار مفتوح، والجِياد تجري إلى حين. كيف أشرحُ لكَ

تجلِّيهِ لي ولك رغم خِصام الأمكنة واتِّساق الأزمنة. فالتَّخلِّي عينُ التَّجلِّي وسِرُّه ومَظهرُه الجَليُّ.

لو أمهلتني قليلًا، ربما أجد كلماتٍ تُبيِّنُ لك كيف يظهر جليًّا لكلينا، وكلٌّ منا في وادٍ، ولو ألححتَ عليَّ الآن فلعلَّه يتكرم ويتفضَّل بالسطوع فيعفيني من حَرَجِ الإجابات المبتورة، ويتولَّى الشرح بغير حديث. لكن مهلا، مهلًا... أرأيتَ هذا القمر الساطع في وجه السماء؟ أراكَ تراه وكذلك أراه وغيرنا يراه، وكُلٌّ منا في بلد بعيد عن الآخر. أو القمر ذاته؟ أم لكُلِّ قُطْرٍ قمرُه؟ وكيف يتأتى للجميع رؤيته وهم متفرقون في بقاع الأرض؟ كذا هو يتجلَّى ويسطعُ حين يشاءُ، فيراهُ الجميعُ، وينهلونَ الضِّياءَ مِن حضرتِه، وكلٌّ يظنُّ أنه معه وفي أُنْسِه، وهو هو في خلوتِه الأثيرة لم يُفارِقْها.

(٣)

أول ما لامست أشعة الشمس وجه "عباس"، حَمِدَ الله على نجاتِه، وعندما لامست وجه المسئول الكبير، انقضَّ عددٌ من الرجال عليه يحملونه، ويُبعِدُونه عن مسرح الناجين، مفترشي الأرض حول محطة مترو السادات كأسماك خرجت لتوِّها من الماء. وأحاط بعباس عددٌ من كِبار رجال الأمن يسألونه-في نفس واحد- عما جرى وكيف قضى المسئول نحبه؟ وقبل أن يردَّ الرجل، أشار أحدهم إلى الجميع فانصرفوا.

وضع الرجل يده على كتف عباس مبتسمًا في وُدٍّ:

- أظنُّ أنه لا حاجة لنا في الأسئلة فالأمر واضح وضوح الشمس، وجودك معه وخروجك به يعني أنك لم تتركه وحاولت قَدْرَ طاقتِك إنقاذَه، وأعلمُ أن حَرَسَه قد تخلَّوا عنه، لكنك لم تفعل. لكن هذه الحقيقة تُسيءُ إلينا، إلى مصر وإلى الراحل الكريم، ولا أظنُّك تبتغي الإساءة إليه، لذا فكلُّ ما حدث هو أنه ضحَّى بنفسه من أجل إنقاذ الناس، المواطنين، وكنت معه-بعدما رأيته يفعل- ففعلتَ مثله، ولولاه لكان حجمُ الضحايا كارثةً. أليس كذلك يا عباس؟

ردَّ عباس بآلية:

- رَحِمَه اللهُ، كان بطلًا.

ابتسم الرجل:

- مُرَّ عليَّ غدًا يا عباس، مكتبي مَفتوحٌ لك على الدَّوامِ.

(٤)

عبيطٌ لا ريب. لا يدرك خبايا الكلمات ولا يفقُهها، لكنه يدرك المشاعر ما ظَهَرَ منها وما استقرَّ في زوايانا المظلمة، يُدرِكُها بوجهها الحقيقي الذي ربما لا ندركه نحن. يعشق اللحم والعراء، كلماتُه غيرُ مفهومةٍ، لا رابطَ بينها، وأحيانًا تكون عَيْنَ الحِكمة. يجلس على باب أي دارٍ ويطلب الطعام، يُعطونه ما يخرج من ذِمَّتِهم، طعامًا بائتًا، وطعامًا حامضًا، وخبزًا جافًّا. يأكل حتى يملأ معدتَه، يشكر هذا، ويرفع يدَه نحو السماء كأنه يدعو له، فتنفرج الأسارير، وتتراكض البُشريات وراء الغيمات المُتناثرة. أو يلعن هذا ويصرخ:

- أعطِ المتعفن للعبيط. النار فمها واسع.

ارتقى "سعيد العبيط" المِنبر، دون أن يجرؤ عبد الواحد خادم الزاوية الوحيدة بقريتنا أن يمنعه، ظَلَّ يرجوهُ، يتوسَّل إليه، يُغريه بكل أنواع الحلوى:

- خذ يا ولد -وأشار إلى أحد أبنائه- عمَّك سعيد إلى البيت، وضع أمامه كل اللحم ليأكله وحدَه. اذهب يا سعيد معه.

ولا إجابة إلا هَزَّ رأسه نفيًا. لا حاجة للقول أن اليوم ليس يوم جمعة، بل هو الاثنين، وصلاة العصر، لكن سعيد صَعَدَ المِنْبَر، بدأ الهَمْسُ في صحن الزاوية:

جِد لك حَلًّا يا عبد الواحد، الصلاة أوشكت يا رجل.

وَقَعَ عبد الواحد بين فَكِّي الرحى، لا تُبارِحُ ذاكرته تلك اللكمة التي أصابت كتف سعيدٍ من شيخ كبير حينما فعل فعلته تلك قبل سنوات، الرجل لَكَمَه، بكى سعيد، والرجل حُمِلَ على الأكتاف قعيدًا من فَورِه، ظَلَّ قُرابةَ العام هكذا حتى زاره المبروكُ ومَسَّ جسدَه بيدِه فعاد سيرتَه الأولى.

- يا عبد الواحد الصلاة.

- هو شأنُكم، مَنْ يُريدُ إنزالُه فليفعلْ.

عشَّشَ الصمتُ والتوجُّسُ فوقهم كما العصافير التي تعشش في سقف المسجد. أتصدقون؟ حتى العصافير سكتت. تفحَّصهم العبيطُ بعينيه اللامعتين، وتفحصوه بطوله الوافر، وعملقته الظاهرة، والزَّبَدِ السائل على زاوية فمه اليمنى، هو لا يسيل على الدوام، بل في أوقاتٍ قليلة. ظلت شفتا المبروك ترتجفان، تنفرجان، صدره يعلو، ينتظرون الكلمات الآتية، مع إشارات يديه اللامعنية بأي شيء. ثم تنطبقان وتنزل اليد بجوار جانبه. النفوس أوانٍ تعتمل بما فيها، ولا ينبئ عنها مثل حديثٍ، البعض يسبُّ، وآخرون يهمُّون بالانصراف إلى الحقول وجلب

البهائم، وفريق ثالث يتربص بالجميع. تلتقي الأعين في حيرةٍ، وتتوقف عند وجه سعيد في رجاءٍ.

- أنا الله.

هكذا صراخ سعيد من فوق المنبر. تاركًا فَكَّه السُّفلي مُتدليًا.

- آه يا ابن الكلب، اللهُ بريءٌ منك، وممَّن يتركُكَ على المنبر يا كافر.

انطلقت الكلمات بغضب من عبد الواحد. وقَرَنَ القولَ بالفعل، حاملًا غضبه في قدميه صاعدًا المِنْبَر نحو العبيط. صرخ سعيد فتجمَّد الرجل والعصافير والمسجد:

- أنا الله.... يقول لي: إن عندك لحم ولا تُعطي سعيدًا. الله يقول لكم أطعموا سعيدًا .. أنا الله يقول لكم سعيد جائع، سعيد جائع، صلوا، لكن أطعموا سعيدًا، أطعموا سعيدًا، ولا تصلوا، الله سعيد لو فعلتُم.

(٥)

- ما مِنْ ثمةَ ناجون آخرون.

أطلقها الرجل، فوَجِلَت قلوبٌ، وبكت أعين.

- النفق به بعض الجثث سنبدأ في إخراجها الآن. أحصاها الغواصون عشر جثث.

دمعت عينا "ضبش"، وفرت دموع حقيقية من عين "حمكشة". هكذا الأمل حينما يسلبه الغيب من القلوب، تُشيِّعُه الأحزانُ وتمشي وراءه الدموع، "بطة" ماتت، ابتلعها الماءُ ووارتها النَّفقُ، سرقة أخيرة كما قال "حمكشة". فشلت السرقة المنشودة، ونجحت سرقة الروح من الجسد الشهي.

- رَحِمَكِ اللهُ يا بطة وغَفَرَ لك.

(٦)

أحمد حجاب في ظُلمة النفق، يعاني قسوة الماء وبطشَه، وبصيص من أمل يحمله فوق كتفيه، لولاه ما كان أمل.

– ماذا أفعل الآن وقد سُدَّت سُبل النجاة، ارتفع الماء ولا أعرف فنَّ العوم. لم أجرِّبْه قط. لم أنزل ترعة قريتنا قط، ولم أَغُصْ في بحرٍ يومًا، كل ما فعلته جلوسي بالساعات أمام النهر في قاهرة المعز. أأستسلم هنا؟ استسلامي انتحارٌ وقتلٌ، وكلاهما حَرامٌ، ما ذنب هذا المسكين الذي أحملُه، أأقتُله بخضوعي ويأسي؟ ففيمَ هرولتُ إليه إذن؟ كنتُ تركتُه لحامد، ذاك الفتي الذي ظننتُه عابثًا وأثبت لي رجولتَه ومسئوليته، أو كنتُ تركتُه للسيدة الفلاحة التي تكافح الحياة أضعاف ما أفعل. ويلتاهُ! أعجزت أن أكون كالشاب أو حتى كالمرأة! أيُّ عارٍ هذا الذي يلحق بك في خِتام حياتِك يا أحمد يا ابن الحاج حجاب؟ أما تعلَّمتَ من حِجاب شيئًا؟ نِضالَه وإصرارَه وكفاحَه؟

مَرَّ به المُلتحي السمين. أتحفه بنظرةٍ، عَرَفَه هتف به:

– بوركت يا رجل، أراكَ نزعْتَ استسلامَك وأبدلته رغبةً في النجاة. هكذا أمَرَنا اللهُ.

– لك الشكرُ يا رجل على نصيحتِك، ولكن لولا هذا الطفل ما نزلتُ من عربة المترو.

يَدُ الرجل تحمل سِواكًا ضخمًا وترتفع من تحت الماء ليسوّكَ أسنانه.

– فلتعلم إذن أن الله يحبُّك ويُريدُ لك النجاةَ، وما الطفل إلا سببٌ لذلك. فاجتهدْ لتنالَها.

– ما فائدةُ السواك الآن؟ أليس هذا أمرًا عجيبًا وتوقيتًا أعجب؟!

قَهْقَهَ الرجل في جذلٍ، فاهتزَّ كِرشُه ليصنع دوائر من الماء حولهما:

– ولا غريب ولا حاجة يا سيدنا. وددتُ لو ألقى اللهَ طاهرًا. اتخذتُ أسباب النجاة كما أمرني، ولكني لا أُجيدُ السباحة وأرى الماء قد بَلَغَ وجهي أو كاد. فأردتُ أن أسوّك أسناني ليكون آخر العَهْدِ بالدنيا سُنةً من سُنَنِ الحبيب.

– أتستلم يا رجل وأنت ناصحي؟!

– لا وَربِّي لن أستسلم، وهأنتذا تَراني أستاكُ، وأُهرولُ لعلَّ النجاة قريبٌ، فإن كانت فهذا مِنَ الله فَضْلٌ، وإن لم تكن فلأَلْقَهُ ساعيًا إليه طاهرًا، هَلُمَّ بنا.

ومضيا معًا.

***

أغلقت حياة الكشكول، وارتدت ملابسها استعدادًا للخروج بحثًا عمَّن يواجه الموت، إما أن تلقاهُ وإما أن تأتي بجثمانِه، لا تدري أيَّ ثيابٍ لبست، ولا أيَّ وقتٍ استغرقت.

ثم فتحت الكشكول ثانيةً وقرأت:

"لستُ مجنونا. لكني أبدو كالمجانين، دائم التحديق في السماء، أو في الفراغ، أو في الل اشيء. كثير الصمتِ، فإذا تحدثتُ، خرجت الحروف مُتكسِّرةً، مُتلعثمةً، يُطارِدُ بعضُها بعضًا، فلا تكاد تبين ملامحها، ولا يفهمُ مَنْ يستمعُ شيئًا. فإذا صَبرَ قليلًا، اتسقت الحروف وأينعتْ، وأزهرت جملًا فائقة الجمال، بالغة الروعة، عميقةً كبحر، فاتنةً كجدول يجري وسط الصحراء. وإن أَسْلَمَ لي روحَه فسيتنسَّمُ داخلها عبيرًا فذًّا، ويبصر قصورًا من نورٍ وآياتٍ من فلسفةٍ وحكمًا..

أشعثُ، تتناثر لحيته كجزر منعزلة على صفحة الوجه، وحينًا حليقًا كأرضٍ تتجهَّزُ للبذور، ينسدل الشعر على رأسِه أو يتفرق كرمالٍ تلاعبت بها الريح... يقولون عني...، وما يهمني في قول لا أسمعه، فعادة أنا معكم، وحواسي هناك في بقعة لم تصلها أرواحكم ألبتة.

لا تصحبني في رحلتي إلا روح واحدة، اخترتُها، وأحببتُها، أصحبُها معي، ربما يكون كلامي معها قليلًا. لكن حديث روحي لا ينقطع إليها ولا حديث قلمي. المشاعر الحقيقية لا يمكن صياغتُها في كلماتٍ. حياة هي الحياة".

– طفل يا أحمد؟ تحمل طفلًا، يا ترى مَنْ هو؟ أحقًّا تُنقِذُه؟ أعلم مثاليتك المفرطة حَدَّ العبط في هذه الحياة. ولكن شيئًا في نفسي يُخبرني أنك أبوه، هل تواجه الموتَ من أجل مَنْ لا تعرفُ؟ أظنُّها مسألةً صعبة التصديق حتى منك أنتَ.

لن أبحثَ عنك. لن أنزلَ إلى الشارع. حتى يأتيني الخبرُ اليقينُ عن هذا الطِّفل.

ما أجملَ اكتشافاتِنا العفويَّةَ! وحِيلَنا النفسيَّةَ التي نُمارسُها بوعيٍ أو دونه لنحميَ أنفسَنا كي نُواصِلَ الحياةَ دونَ مُنغِّصاتٍ تُوقِفُها أو تنالَ منها.

٨:٢٠ ص

(١)

أخرجتُ هاتفي من جيبي، طلبتُ رقم الشيخ، رنين متصل:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

صدمني الرد كشاحنةٍ عملاقةٍ فارتدَّ جسدي للخلف، وارتجَّت روحي، كنتُ أُهاتِفُه ويقيني أنه لن يرد، لن أجدَه، وكيف يردُّ مَنْ رَحَلَ؟ هاتفتُه والأماني تُراودني أن يرد ككرامة أخيرة له في عالمي القميء. طلبتُ رقمَه وأنا بين بين.

رددت في جموع الناجين:

- الشيخ حيٌّ. الشيخ حيٌّ.

دارت الرؤوس والأبصار كلها لتنظر إليَّ. أضع يميني على أذني، وأهتِفُ بفرحةٍ طاغية:

- وعليكم السلام ورحمة الله يا مولانا، أين أنتَ يا شيخي؟ كيف تتركُني؟ وكيف أنت حيٌّ وقد أخبرتني -وأنت عندي صادق- برحيلِك؟ أهو اختبارٌ جديد؟ أم نجاةٌ قد تستعصي على فهمي فتركتني؟

تساءل ضبش في تعجبٍّ:

- أين الهاتف الذي تتحدث منه؟

ردَّ رجلٌ بالجوار من الناجين:

- مسكين لقد مسَّه الجنون، يده فارغة.

- اعذروه فقد مررنا بمحنةٍ تذهبُ بالعقول.

هكذا عقّب آخر.

- نعم نجا جسدُه وغَرِقَ عقلُه.

تمتم الأول في خفوتٍ.

جال فيهم ضبش بعينيه وقال بوحشيةٍ هادرة:

- لو قال أحدُكم كلمةً أخرى سأُطيحُ بعُنقِه.

- دعهم يا صديقي، فهم معذورون، لم يروا الشيخ ولا ذاقوا حلاوة المعرفة، ففي زحام المولد، تضيق الأجساد بالزحام، وربما يفترق الأحباب، لكن الأرواح المخلصة تتلاقى عند جدار المحبة الشاهقة، تتكور تحته، تتعانق، تثمل بإلهام الأُنس، وتَعُبَّ من كأس الوصل.

(٢)

- أتعرفين يا سلوى، أعلم أنك بين يدي والدِك الآن، لكنك في قلبي وروحي معك: كثيرًا ما أغرق في أحلام اليقظة، خاصة في خلاء الصحراء حين أقف حاملًا بندقيتي مدة أربع ساعاتٍ متواصلة بلا سجائر ولا حركة بعينين مفتوحتين وأذنين مشرعتين كالكلاب أو الذئاب أتصيَّدُ الخطوات الغريبة أو الأحلام العابرة، وحين أخلو من أحلامٍ أنطلق بحثًا عنها وأخترعُها اختراعًا ربما لقضاء الوقت، وربما مُنادمةً لما يسكنُني من آمالٍ وأوهام وبعض جنون، هكذا أقضي أيام خِدمتي، وهكذا أُمضي أيامي بعيدًا عنكِ يا سلوى.

ينطلق السؤال من داخلي. فوهة بركان تُصْليني أرقًا وبحثًا وجهًدا وحيرةً. دون إجابة.

بتُّ أخشى أن أحلم في اليقظة، أكره تلك الأحلام، أخشاها. في تلك المسافة الفاصلة بين اعتلاء المهد والغرق في النوم، أستدعي مُخيلتي كي أحلم، أوجه دفة أحلامي مثلما أشاء، تتنزل الأموالُ بأمري من السماء، أو تمتلئ أكياس القمامة في طريقي بالدولارات والحلي، أضرب

أمين الشرطة شرس الطباع ساكن حارتنا ذا الكرش الكبيرة، تلك مقدمة أحلامي الليلية، ثم تنطلق مراكبها رغمًا عني إلى آفاق أخرى وعوالم لم أكن أرغب في الولوج إليها. تقودني هي في المرحلة الثانية من مراحل السقوط في بئر النوم.

ذات مرة رأيت أبي يمرض مرضًا شديدًا ويُودِّعُ الحياة. كيف هي الحياة بدونك يا أبي؟ رأيت حال أمي ودموع إخوتي. وحزن بني عمومتي. رأيت دارنا ملأى برجال لم أرهم، بعدها بأيام مرض أبي بالفعل وانتقل إلى عالم جديد، وكل مَنْ رأيتُهم في حلم يقظتي رأيتهم في الواقع، تبًّا لهذا الحلم المُتحقِّق ولعنة الله على تلك الأحلام التي تنتقل بسهولة من المتخيل إلى الملموس. أهي أمنية داخلية تحققت؟ أم نبوءة في عالم بغير أنبياء؟ أم قفزة عبر الزمان كي أرى ما سيحدث؟ لماذا لا تتحقق المرحلة الأولى من الأحلام، مرحلة الأموال والنساء والسلطة؟ لماذا تتحقق فقط المرحلة الثانية، مرحلة الموت والمرض وعوارض الحياة.

أدمنت السهر حد الغرق في النوم فجأة، جالسًا أو واقفًا أو مُشاهِدًا التلفاز أو مُمسكًا بقصة أو رواية. خشية أحلام اليقظة. البعض يراني سلكت درب الوصول. وآخرون يرون أن قريني يأتيني ببعض الأخبار، وفريق ثالث يعتقد أني شابٌّ طيبٌ مَكشوفٌ الحجاب عنه. ظلت الجملة الأخيرة تتردد في رأسي طويلا: "مكشوف عنه الحجاب"...

أمي كانت تضيق بي لأني لا أصلي إلا الجمعة فقط:

- يا حامد صلِّي يا بني كي يكرمك الله. أعرف ستقول لي إن شاء الله سأفعل. غريب أمرك يا بني أيكون والدك شيخًا ذا شأن بين أقرانه ولا تُصلي. صحيح يخلق من ظهر العالم حامد لا يصلي.

- ربُّك ربُّ قلوب يا أم حامد.

- ونعم بالله يا ولدي وهو الذي أمرنا بالصلاة.

والحقيقة أني أشتاق إلى النوم بعمق، أتوق لبعض أحلام اليقظة لأجمع بعض الأموال وأنفقها فيما أحب. مددتُ يدي لأغلق تلك النوافذ المشرعة التي تأتيني بكل غريب وعجيب، ونظرتُ إلى ضخامة ظلي الممتد على مساحة من الأرض، تلك التي يفترشها الناجون، مُتأمِّلًا: كيف لهذا الجسد المحدود أن يصنع هذا الظل العملاق؟ وكيف لهذا الظل أن يكون ذا نفعٍ في بعض الأحيان؟ فها هو يظلل مجموعة من الناجين، يحميهم من شمس قد تُؤذيهم بعد مُعاناة مع الظلام والماء والموت في نفق المترو، لم أفعل شيئًا ذا بالٍ لهم، لكن الظِلَّ فَعَلَ.

(٣)

تدنو السماء كأقرب ما تكون، وترفرف أجنحة الأناشيد حتى تطاولها، والشيخ في وجده ينشد:

هاموا على الكونِ من وجدٍ ومن طربٍ

وما استقلَّ بهم رَبْعٌ ولا طَلَلُ

يلقي "سعيد" جسده العملاق وسط السكارى خمرًا، يهتزُّ داخل الكأس وَلِهًا، والنور نغمٌ يطوي دروب البعد ليلتقي الأحبة في الساحة، يفرد ذراعيه عن آخرهما، نخلتان عفيتان، يحاكي الموج في تتابعه ودوراته، يضرب شط المعاصي بأكفّ المحبة ويصعدُ مع الروح حيث تستقرُّ الأناشيد. والقوم من حوله تفرُّ قلوبُهم. ويلهثون للحاق بمدارِه ووجدِه.

داعي التشوق ناداهم وأقلقهم

فكيف يهنوا ونار الشوق تشتعلُ.

وارتفع وهج التراتيل والأناشيد حتى كادت السموات والأرض أن يُرتقا. وصاح "سعيدٌ" صيحة خلعت ما تبقى من قلوب تسكن صدور أصحابها، ثم تداعى بعضه وسقط البعض الآخر تحت وطأة ما تداعى منه، غائبًا عن حضور الشهود، سقط الجبل للمرة الأولى وسقط معه نفرٌ ممن أخذتهم الصيحة فآوتهم في الحضرة. وصدى صوت الشيخ يتردد في جنبات "الجرن" بين الحقول الخضراء:

فسألتُ أهل العشقِ كيف خلاصُهم

فأجابني داعـــي الهـــوى بتوددِ

تهوى وتطمعُ أن تَفرَّ من الهـــوى

كيف الخـــــلاص بقيدكَ المتؤبِّدِ

عبثًا حاولَ بعضُ مرتادي مولد سيدي "أبي المناديل" إفاقة سعيدٍ، أو جذبه من هُوةِ السكرة إلى واقع الصحوِ. ربتوا على وجههِ، ضربوه، حطموا عشر بصلاتٍ، وقرَّبوها من أنفه، أفاضوا عليه الماء. تسمَّعوا نبضه. تحسَّسوا أنفاسه، لا شيء.

- جذبه الحق.
- ألم يكن مجذوبًا؟
- انهار تحت وطأة الشوق.
- كيف نُفيقُ من ليس معنا؟

- لعله مات.

- سعيد مات.

تحلَّق الناس حوله، ما بين ذاكرٍ، ومتمتمٍ بالشهادة، شقَّ الجموع طفلٌ لم يتجاوز العاشرة عبد القادر، أفْسَحُوا لحبيبه. انشقَّ الناس كالطود من حوله فرقان، ارتمى عبد القادر فوق العملاق المهيب، الساكن على غير اعتياد. يُخَيَّلُ للناظر أنهما كوز ذرة فوق عوده. ضربت اليد النحيفة الصدر الرحب ودموع الفتى تسيل فوق وجهه، وتتسرب قطراتها الدقيقة فوق وجه "سعيد":

- ما بالك تركتني؟ أتُخلِفُ وعدَك؟! ألم تعدني أن نسكن النجمة البعيدة معًا؟! أن نصعد يدًا بيدٍ؟! نسير فوق الغيمات فلا تلامسها أقدامنا؟ يا تُرى أفعلتها دوني؟! أم أخذت أحدًا غيري معك في مِعراجك؟ يا "سعيد" هذا جيبي مليءٌ بالحلوى كما عوَّدتك. فأين ذراعاك المفتوحتان عن آخرهما فرحةً بقُدومي؟ هذه يدي خذها كما تعوَّدت، وسِرْ بي كما تفعل نحو الساقية البعيدة، نأكل الحلوى، ونتقافز وراء بعضنا البعض. هيا يا سعيد، طارِد الأولاد العفاريت الذين يضربونني. شَيِّعهم بالطوب وباللَّعنات. وابتسم في وجهي.

دَرْبُ الدموع ابتلع فيضَ الكلمات، أمسك عبد القادر، وتحدث الدمع من كتاب النبضات وهو راقد فوق صدر سعيد.

- كيف لهذا الصبي أن يكون حبيبا للمجذوب؟ هو الوحيد الذي لا يقذفه بالطوب، يمنحه الحلوى كلما لاقاهُ وبعض الخبز. بل

يقتطع من طعامه ليعطيه. لذا هو الوحيد الذي نجا في قريتنا من قبضة المبروك ومِنْ سُبابه وصُراخه، إذا ما رآه في دربٍ فرد ذراعيه وملأت الابتسامة وجهه، وحمله وطاف به حول القرية. وربما أخذه في جولةٍ في الحقول. لا يعرف أحدٌ ماذا يقولان أو ما يفعلان في غيبتهما.

وارتفع صدر العملاق. تحولت الأعين كلها نحوه، شَهقَ كأنه يُصارِعُ وحشًا ليستردَّ أنفاسَه، فَتَحَ عينيه، كان بياضهما جمرًا. نقلها بين الأجساد فاقشعرت، ركبهم الخوف فتراجعوا عدة خطوات. ثم استردتا لونهما حينما استقرتا على وجه عبد القادر. فتح ذراعيه واحتضنه، حمله ومرق من بينهم.

صَبٌّ ببابك واقفٌ لا يبتغي إلا رضاك فجُدْ به يا سيدي

(٤)

أيمن، آخر رأس أطل من ظلمة النفق، تلفَّت يمنةً ويسرةً، رأى زملاءه، يقصُّون كيف أنقذوا الناس، نعم فعل بعضهم حينما رأوا الضوء وأيقنوا بالنجاة، فحمل كلٌّ منهم أقرب الأحياء إليهم نحو النور. هزّ رأسه، ربما أسًى وربما تعجبًا. استند إلى جدار مدخل المترو وطفق يتأمل حكايات الناجين، ويدور بعينيه علَّه يجد بعض من قابلهم في الظُّلمة أو بعض مَنْ حملهم نحو النور، أغمض عينيه قليلًا مُطلقًا العِنان لأذنيه الحادتين كي تُميِّزَ بعض الأصوات، هذا الصوت كان يبحث عن شيخِه، وهذا يتحدث إلى فتاتِه، وهذا مَنْ دلَّ الناس على المروق ناحية محطة مترو السادات.

- أيمن، كنتَ بطلًا بحقٍّ.

- ابتسم ابتسامة صغيرة:

- بل أديتُ واجبي.

- اسمع يا حضرة الرائد، كلنا كنَّا أبطالًا، وفعلنا ما يُرضي ضمائرنا، وأنقذنا الناس.

بسخرية باكية:

- نعم، وأنا على ذلكم مِن الشاهدين.

- تلك هي الرواية التي سنقصها. فلا تخالفنا إلى ما يَضرُّك ولن يضرنا.

- لن أُخالِفَ ولن أُوافق. هذا سلاحي لم أعُدْ أحتاجُه.

في منتصف الطريق بينه يده ويد زميله، أمسك رجلٌ مِنْ خلفه بيدِه قائلًا:

- وأنا أحتاجُ رجالًا مثلك. فليبقَ سِلاحُك معك.

اعتدل في وقفته وأدى التحية:

- تمام يا أفندم.

هنالكَ أروقةٌ مُظلِمةٌ داخل النور، مُغلقةٌ من الناحيتين، لا يُسمحُ لضوءٍ بالمرور فيها. لا يُسمح لأحد بالتلصُّص عبر ثَقْبِ المِفتاح، تاريخٌ مُظلِمٌ أغلقَ الرجلُ عليه وباعه في النسيان. لم يُحدِّثْ بِهِ نفسَه.

٨:٢٥ ص

(١)

يتبادلُ القمر والشمس احتلال السماء، وتمرُّ الأيام بغير جديدٍ يُذكر، سعيد العبيط كما هو، يذوب في مولد أبي المناديل وجدًا وطربًا. ويفوز باللحم والحلوى بما قد يعوضه عن افتقارهِ إليهما طول العام، وعبد القادر ينمو كل عام شبرًا.

يتزين "الجرن" ويلتئم المولد، ترفرف الأرواح عاليًا والأناشيد، ويشقُّ الجموع عبد القادر بوجهه الباسم وشاربه الأخضر. جيبه مملوء بالحلوى، وعيناه تجوبان الجموع بحثًا عن سعيد. ما إن يراهُ حتى يُسرِعُ إليه مُتهلِّلًا، ويفرد سعيد ذراعيه عن آخرهما ليحتضنه.

- كبرتُ يا سعيد.

لكن هل يدرك سعيد هذا؟ يضمُّه إلى صدرِه فَرِحًا، ويردد ذات الكلمات:

- حلوى... أين؟ هيا.

يأخذ بيده ويمضيان خارج المولد. يَشُقَّان طريقًا وسط الظلام، العين لا ترى، وسعيد يمضي مُسرعًا-على غير عادةٍ- وعبد القادر يسير على هديه. يوقفهما بعضُ الشباب:

- إلى أين يا عبد القادر؟

- يا صاحبي ألن تتوقف عن مصاحبة العبيط؟

يهمسُ أحدُهما:

- ولكن أيها العبيط؟

تتناثر الضحكات في وجه الليل.

- ماذا فعلت فوزية يا سعيد؟

يشتدُّ ظلام وجه عبد القادر، نفخ السؤال الماكر في الجمر، تحولت عينا الفتى إلى جمرتين، توقفت قدماه عن السير مع سعيد، لكن قوة سعيد تغلبت وسحبته بعيدًا عنهم وعن الغضب المشتعل في أعماقه. وسعيد يصرخ:

- إلى النور... إلى النور، سعيد ذاهب للنجم البعيد، عبد القادر مع سعيد، سعيد لا يريد لحمًا، سعيد لا يريد حلوى، سعيد يريد النجم، النجم يريد سعيد،

- والنبي يا سعيد أرسل مع عبده قطعة من النجم.

- دع اللحم لنا يا سعيد.

ويمضيان...

الفجر أزفَ ونداء الحق لم يرتفع. نفرٌ قليل في المسجد ينتظرون صيحة الحق. ما باله عبد القادر! هل أخذه النوم أم السهر في المولد أم العبيط؟ هي مرته الأولى منذ أخذ على عاتقه رفع الآذان.

- لعل المانع خيرًا.

- قم يا عبد الواحد ارفع الآذان.

همسٌ كثير يدور في القرية، اختفى الرجلان فجأة، سعيد وعبد القادر.

الشباب يقولون أنهما مضيا إلى المصرف البعيد ولم يعودا، وأن سعيدا كان ذاهبا إلى النجم البعيد.

حُزنٌ مُقيم في قريتنا بعد مرور نحوًا من شهر على الاختفاء. فمن قائل قُتلا. ومن قائل استوطنا مكان آخر. ومن قائل جذبهما الحق. همسٌ صاخب يتردد، أطلقه غجريٌ مقيم على أطراف القرية. سمعتُ فجر الليلة الكبيرة لسيدي أبي المناديل همهمات تصدر من القبة تسللت إليها، ميزت صوت سعيد وهو يخور ويئنُّ ويقول: - سعيد لا يريد إلا الحلوى. سعيد يحب عبد القادر.

وآخر يقول:

- سعيد قتلني ذات يومٍ وصرتُ ابن فوزية بسببه.

أظنهما لم يختفيا، لم يهربا. بل قُتلا أو قتل أحدهما الآخر وفرَّ.

فمن قائل كلام غجرٍ، ومن قائل بل هو الأقرب إلى الصواب. بيد أن القرية لم تجرؤ على فتح القبة كي لا تغضب الشيخ الساكن فيها. وكيف يدخلانها وهي بلا أبواب؟

عشرون عامًا أو يزيد والماضيان لا يعودان.

لمح أيمن جسد زينب الطافي فوق الماء بلا حركة. فنشط إليها. جسَّ نبضَها فوجدَها حية. رفعها ومَرَقَ بها نحوًا من عشرة أمتار حتى سلَّمها لرجل من رجال الإنقاذ.

انتبهت زينب بعد خروجها من النفق:

- أين عبد القادر؟

- عبد القادر من يا زينب؟

- عبد القادر بن كمال؟

- ومَنْ ذَكَّركِ به، تعلمين أنه تبخَّر كأن لم يكن منذ أعوام طويلة.

- أبدًا لقد كان في النفق معنا، متأبطًا ذراع رجل شابٍّ فتيٍّ.

وجالت بنظرها في جموع الناجين حتى وجدت حسن واقفًا يتلفت ومعه ضبش. فأشارت إليه: هذا الشاب الطويل كان معه.

اذهب إليه يا أبا سليمان وسَلْه عن عبد القادر وسعيد لعلنا نجدهما.

(٢)

رأس "حودة" تطلُّ من النفق، يليها رأس "حجاب". خلق كثيرٌ هُرعوا نحوه. أعين باكية تملؤها الفرحة، ووجوه باسمة غير مصدقة يمرح فوق قَسماتِها الذُّهول والتعجُّب، حودة مُتشبِّثٌ بعُنق أحمد حجاب، وامرأة باهرة تُحاوِلُ أن تضمَّه إلى صدرِها "تامر" حبيبي، روحي، ألا تعرفني؟ أنا أمك وهذا أبوك. تعالى في حِضني؟ والولد يزداد التصاقًا بمن أنقذه. عامان يا ولدي. جُبنا الوطن، لم نترك فيه قريةً إلا وبحثنا عنك فيها، أعلنا في الجرائد، علقنا صورك على أعمدة الإنارة، وفوق حوائط مصر، أبلغنا الشرطة. ورصدنا مكافأة تستغرق كل ما ادَّخرناه، فُقِدَ الأمنُ الأملُ ولم نفقِدْه، كنتُ على يقين بوجودِك، بحياتِك، وأني سألقاك يومًا، شدَّ ما أرعبني أن أجدك ولا تعرفني!

تحتجز الدموع الكلمات وتخنقها. وتبقى ذراعا المرأة ممدودتين كإشارة تُغني عن كل الكلمات، ومِن خلفها ظهرت امرأةٌ عجوزٌ

– "تامر"، "توتي".

فهُرِعَ إليها على الفور وارتمى في أحضانها.

- "تيتة".

- عرفتني!

- هو الحب يا ولدي. هو الحب لا يضيع ولا يُنسى. قد يوضع في زاويةٍ، قد يكتنفه بعضُ الظلام. لكنه يبقى.

دمعتان انحدرتا على خدي حجاب، مسحهما سريعًا.

***

فتحت حياة صفحة زوجها على الفيس بوك، وقرأت آخر ما كتبه:

حروف من سندسٍ، ومعانٍ ولدن من رحم قمرٍ يشرق في كبد السماء مرة كل ألف عامٍ. جمعتها في رسالةٍ، خططتها بنبضِ فؤادٍ لا يعرف غير هواكِ.

وجعلت الجميع رسولٌ إليكِ، فرددتِ الرسول كسيف خالي الوفاض من أملٍ. وهأنذا أنتظر ذات القمر أن يشرق في كبد السماء. أكتبُ لكِ اليومَ وأنا أوشكُ على إنهاء درب الغياب، وأهمُّ بالعودةِ إلى دربكِ الجميل. نلتقي، نتذكر، نحلم، نختلس من الطريق مكانًا قصيًّا في ظلال شجرة وارفة، ومن الزمان لحظة غافية فأبثُكِ أشواقي في لمسةٍ حانيةٍ من كفٍّ-صارت قلبًا- لكفٍّ-أراها روحًا- تتعانق أصابعنا-كما كنا، ونخط في كتاب الخيال أحلامًا فنثمل ونترنح في كؤوس الأمنيات، تحفُّنا موسيقى هادئة رقيقة، يعزفها قلبان عاشقان.

صوتكِ حبيبتي، تغار منه الرِّقَّةُ، تقاطيعكِ شاهد جمال مُتفرِّد، نبراتُكِ نشوة تُلهب الخيال وتدفع الدم في عروق الحياة، عيناكِ طبقات من موج يغري المارين بتعلُّم فنون العوم. شفتاكِ طبقا فاكهة. كفاكِ ورد وعقود سلامٍ، عندما تهمسين باسمي أوقن أن لا أحد ناداني من قبل.

ولمحت صورة زوجها ومعه طفل ومناشدة منه لمن يعرفه أن يأتي ويأخذه.

– هكذا أنت يا حبيبي قلب وضمير صافيان. سأنزل الآن كي أكفر عن سوء ظني بك وفيك. سألقي نفسي بين ذراعيك، وأبكي ما شاء لي البكاء. سامحني واغفر لي غيرتي وتأخري عليك.

وعيناها تلتهم سطور وهي نازلة بسرعة على الدرج:

– لستُ مجنونًا إلا في حبي، إلا في مشاعري، فحين أحبُّ، أحبُّ بقلبي وروحي وعقلي وعيني وكل حواسي. لا كراهية ولا أية مشاعر سلبية، جدول صاف متدفق من شتى المشاعر الحلوة، وعطاء بغير حدود دون منٍّ ودون قول، فما يفيد الكلام مع الهوى، ما يفيد الحديث مع نظرة أولها عين ومنبعها قلب، وغذاؤها النظر للحبيب. أرى الحروف هنا ضلالًا، تنال من الهوى وتنقصه، مهما تؤتَ من بيانٍ، فابتداء الحياة حبٌّ، ومواصلتها مع الحبيب حبٌّ، ونهايتها حبٌّ، ولولاه ما خَلَقَ الله البشر ولا النباتات ولا الكون بكل ما فيه. الحبُّ سِرُّ الله في الأرض.

- أحبك في جنون يحتويني. وما الجنون فيك إلا منتهى التعقُّل والاتزان. أحلى جنون جنونك يا أحمد، فلتبقَ هكذا من أجلي.

ألقت بنفسِها في أقرب تاكسي كي تصل محطة السادات-خلافًا لعادتها في التوفير- ورغبةً في الوصول بسرعة، واستغلال الوقت في قراءة ما خَطَّه زوجُها من نبضات لها، وندمت أشد الندم أنها لم تقرأ الكثير منها، بل كانت نفسها تعافه.

- محطة مترو السادات يا أسطى من فضلك.

ألقت الكلمات على مسامع السائق، ومضت تأكل الحروف أكلًا وقلبها يدُّق بعنفٍ كفتاة في العشرين من عمرها:

- أعترف بلا خجلٍ أني كل الفصول، تراني عاصفًا كشتاء بربري يجتاح تلك البقعة من الأرض، كما لم تعتده من قبل. وعندما تعوي الريح وتكاد تأتي على الأخضر واليابس، يورق الربيع ويزدهر الورد، وتتفجر الأنهار عذبة سهلة المنال، تخدش رقة النسيم حياءً. ولربما يستهويك الربيع فتمد يديك كي تقطف زهرة، فيفاجِئُك مني خريفٌ تتساقط معه كل أوراقُ الشجر والياسمين والفل.. وحين تستكين في روعة الخريف ونسماته الباردة المحملة الهاربة من جحيم الصيف، تضربك نسمة من خماسيني تُلهِبُ وجهَك وحلقَك وروحَك.

هو أنا بلا زيادة ولا نقصان. متململٌ لا أستقرُّ، من غصن إلى آخر تفيضُ الروح حبًّا وعشقًا، ويمتلأ القلبُ جراحًا وألمًا، وتأبى العيون إهدار دمعةٍ، أو إظهار لحظة تظنُّها ضعفًا. يا ترى، هل أصلُ وأجدُك؟

– انفضي هذه الأفكار عن رأسِك. الله معه. طالما ينقذ طفلًا، سينقذه الله من أجل أطفاله ومن أجلي.

يا ترى، ما الذي غيَّر اتجاهه من طريق عمله إلى طريق آخر؟ ربما تكون الأقدار كي أعرف كم يحبُّني حتى الآن؟ وربما يكون قدرًا كي نعود لسابق عهدِنا، وربما في الأمر شيء آخر، المهم أن أجده. أن يهبه الله إيايَ ثانيةً وأَعِدُ اللهَ أن أكون له كل شيء حلو.

(٣)

- أتعرف يا صديقي أنتَ مُريدٌ جميل، ولا أشك لحظة أن الشيخ حيٌّ، وأنه سيأتي لتكون معه مثلي.

هَزَّ ضبش رأسه قائلًا:

- المهم أن أبقى معك. فهذا يكفيني.

شَخَصَ حسن ببصرِه بعيدًا، فتتبع ضبش اتجاههما إلى خلاء الفضاء.

عينان واسعتان عميقتان، صافيتان. أخذتاه إلى فراغ لا متناهٍ من الطمأنينة والأمل، وصوت رخيم جميلٌ يقول:

- يُشير إليَّ أن هلمَّ.

يتقافز بخفةٍ من غيمة إلى غيمة، لا أستطيع من الأرض أن أُميِّزَ بين الغيمات وجلبابه الأبيض. ونفرٌ قليلٌ يتجول حوله. بعضهم يتقافز مثله، وآخرون يوشكون على السقوط فتمتدُّ يد من هنا أو من هناك لتلتقط منهم من تشاء ليبدأ رحلة جديدة في صيد الغيمات أو اللحاق به فتقله من مكان نعرفه إلى مكان يعرفنا. والباقون يتساقطون.

أحاول القفز فلا تبلغ قفزتي شيئًا، يشير إلى قلبه، أضع يدي على صدري وأعيد الكرة، تصكُّ الأرض قدمي، يبتسم ويشير إلى قلبه، ينظر إلى السماء، أظنني أفهم، أقلِّب بصري في السموات وأقفز، تشدُّني الأرض إليها، يقذف لي شاله الأبيض. أتشبَّث به يصعد بي إلى غيمةٍ وحيدة تركض جاهدةً لتلحق بالرَّكبِ. يهمس ولا تنفرج شفتاه

- إلا من أتي بالقلبِ.

أدقُّ الغيمة بقدمي. ألكزها، تغوصُ قدمي في نعومةٍ ما من ثمة مقاومة، ما من ثمة ركض، أغمضتُ عيني، ألحق بهم خيالًا ووهمًا. أرتِّلُ آيات المحبة على مهلٍ، وأتلو سور الشوق، تقترب منهم، تُقرِّبُني إليهم، أمُدُّ يدي ألحق بثوبِه، أقبض على قطعة من بياضِه، تثَّاقل غيمتي. يحول لونها. تتفكك قطرات من مطرٍ، أتفكك معها جاهدًا أن أبقى بالقُرب، ليس من قربٍ، القُربُ وعيٌ، والوعي غيبة.

أتناثر على مساحة شاسعة من الأرض، هنا ولستُ هنا، مع كل الناس والمخلوقات، مع الأشجار والجداول، فوق أجنحة الفراشات، أقبل أوراق الورد، لا مكان، قطراتي في كل مكان، حيث لا زمان ولا مكان.

بعضٌ مني يلقى جدي البعيد ذاك الذي لم يَرَهُ أحدٌ. يُحاورني وأستمعُ، يقصُّ عليَّ نتفًا من حياته، شذراتٍ من حِكمتِه، أتطلَّع إلى وجهِه، هو وجهي أو كأنه هو، وذرة تقبضُ على مِسبحةٍ، وتقفز بلا غيمٍ فتسبقُ الرَّكْبَ.

ما بَيْنَ أوَّل الكلامِ وآخرِهِ، قَبَسٌ مِنْ رُوحٍ، وحِفْنَةٌ مِنْ نَبْضٍ، وبَعْضُ أحلامٍ.

٨:٣٥ ص

(١)

وصلت السيارة إلى محطة مترو السادات وقفزتْ حياة منها، توجَّهت نحو مُجمَّع التحرير حيث لمحت الجموعَ واخترقت الحاجِزَ، وقلبُها يبحثُ عن أحمد حجاب، روح الحياة وسر الوجود. أَلِفَتْهُ باسِمًا، رقيقًا.

ألقت نفسَها بين أحضانِه، وبَكَتْ.

تأمَّلتُها وهي مستكينة بين ضلوعي، ها هي ذي عادت لي كما كانت.

أتكون لحظةً؟ أم تدوم؟ طوقتُها بذراعي، وأطلقتُ صوتي الأجش الممتلئ بردًا ودخانًا أشدو بأغنية السيدة أم كلثوم:

أمل حياتي يا حب غالي ما ينتهيش.

خد عمري كله بس النهاردة، سيبني أعيش.

(٢)

تتَّسِعُ ابتسامةُ حامد وهو يستمعُ إلى الأخبار من مِذياع هاتِفه المحمول.

والآن إليكم العناوين الرئيسية للأحداث:

تضحيات رجال الأمن أنقذت ركاب المترو من كارثة محققة.

المسئول يضحي بنفسه ويتابع إخلاء الناس من النفق الغارق في مياه النيل.

استشهاد المسئول بطلًا.

حوارات مع الناجين تؤكد: المسئول ضحى بنفسه وأنقذنا.

لولا رجال الأمن وتوجيهات المسئول لكان الموتى بالمئات.

عمل إرهابي يستهدف جسم النفق.

الأمن يُعيدُ طفلًا مَخطوفًا -منذ عامين- إلى أهلِه بعد القبض على المتهمين أثناء فَرارِهم من نَفَقِ الموت.